الإعجاز التاريخي والأدبي والتربوي

(في سورة يوسف)

بقلم

أ.د عبد الحليم عويس

مفكر إسلامي
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
مصر

(جمادى الأولى ١٤٢٧هـ - يونية ٢٠٠٦م)

أولاً : **الإعجاز التاريخي في قصة يوسف**

أ ـ توطئة :

من خلال سورة يوسف وهي السورة رقم (١٢) في ترتيب المصحف التي تقع في مائة وإحدى عشرة آية ، وتعد من أوساط السور القرآنية حجماً، وهي مكية كلها إلا أربع آيات هي الآيات التي تحمل الأرقام (١، ٢، ٣، ٧) (١) ، وقيل ثلاث آيات كما جاء في البحر المحيط عن ابن عباس وقتادة (٢) .

من خلال هذه السورة ترد قصة يوسف كاملة غير منقوصة في وحدة موضوعية فريدة لم تتحقق ـ بهذا القدر الكمي ـ لأية قصة من قصص الأنبياء الآخرين في سياق واحد.

وقد تأتي قصص بعض الأنبياء في سياق واحد ، وفي وحدة موضوعية ؛ ولكنها تكون بالغة الإيجاز بحيث يصعب عرضها عرضاً مفصلاً على الموازين الأدبية والتاريخية والتربوية ، اللهم إلا في إطار الحقائق التي وردت فيها ، والتي تتسم بالإيجاز الشديد .

ولكي نثبت ـ من خلال المقارنة التاريخية والدينية الموضوعية ... مدى الإعجاز القرآني في الهيمنة على الكتب السابقة تحقيقاً لقوله تعالى {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (٣) .

والهيمنة المنصوص عليها في الآية تعني أن القرآن هو المرجع الأخير، والصورة الأخيرة لدين الله بلا تعديل ولا تبديل ، وكل اختلاف يجب أن يحتكم فيه إلى القرآن (٤) ، وذلك لأنه تضمن ما تضمنته من حقائق وأقر الحق منذ آدم (عليه السلام) ، كما زاد عليها من الكمالات ما لا يعلمه إلا الله .

كما أن القرآن أيضاً شهد على الحق الذي فيها، وشهد بالبطلان الذي فيها أيضاً ؛ مما أدخله عليها أصحابها تحريفاً لكلمات الله عن موضعها (٥) .

أقول : لكي نثبت مدى الإعجاز القرآني في الهيمنة بصفة عامة ، وفي سورة يوسف بصفة خاصة نشير إشارات موجزة إلى بعض ما ورد في التوراة حول قصة يوسف؛ كاشفين النتيجة المنطقية والعلمية المؤكدة للإعجاز القرآني دينياً وتاريخياً وتربوياً .

---

(١) تفسير القرطبي ١٢٢/٩، ط٢، دار الحديث ١٩٩٦م.

(٢) المكان السابق نفسه.

(٣) سورة المائدة ، آية : ٤٨.

(٤) في ظلال القرآن ، ص : ٧٤٧، ط٧، دار المعرفة ـ بيروت ١٣٩١هـ .

(٥) سعيد حوى : الأساس في التفسير ٣/ ١٣٩٧، ط/١، دار السلام ـ القاهرة ١٤٠٥هـ .

ب ـ تاريخ يوسف بين التوراة والقرآن :

عبر أربعة عشر إصحاحاً من سفر التكوين (٣٧ ـ ٥٠) عرضت التوراة لقصة يوسف منذ البداية ، وحتى النهاية .

ونحن نجد الروح التي كتبت بها القصة في التوراة مختلفة بصورة كبيرة عن الروح التي وردت بها في القرآن ، فضلاً عن الاختلاف في الحقائق والمعلومات، مع أن القرآن يلتقي مع التوراة في هذه القصة ـ بخاصة ـ على نحو كبير ، وذلك على العكس من كثير من قصص الأنبياء السابقين .

فمن أخبر محمداً (عليه السلام) ـ النبيّ الأمي ـ بتلك التفصيلات الدقيقة عن يوسف وآله ؟

ومن علّمه هذه الإضافات التي جعلت القرآن {مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ}(١) في الوقت نفسه ؟

ومن أخذ بيد هذا النبيّ الأمي إلى هذه الآفاق التاريخية، والأدبية ، والتربوية ، والدينية العلمية؛ التي تحفل بها السورة؟

ومع ما ذكرناه من وجود قدر كبير من الالتقاء بين التوراة والقرآن في سورة يوسف إلا أن هناك فروقاً كثيرة بينهما ... بين البناء التوراتي للقصة ، والبناء القرآني لها ... فكيف بالفروق بين ما ورد في التوراة والقرآن في القصص النبوي كله؟

ـ أليس هذا ـ في حدِّ ذاته ـ إعجازاً يستحق الوقوف عنده؟ ... ويوسف هي نموذجه الأكبر؟!!

إن الروح الإيمانية، والتربوية ، والأخلاقية تتجلى في السرد القرآني ، بينما تتجلى الروح التاريخية في السرد التوراتي ، وقد اختلط السرد التوراتي بكثير من الخيال ، وتأثر في الوقت نفسه بما كان من واقع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر.

تذكر التوراة في (الإصحاح السابع والثلاثين) أن يوسف أتى بنميمة اخوته الرديئة إلى أبيهم ، وكان هذا سبباً من أسباب حقدهم عليه، ولكنّ الإصحاح لم يذكر لنا هذه الريبة ، أو النميمة ، وهل هي خطيئة يجب ذكرها أم أنها خطأ عارض .. ولم يرد في القرآن شيء من ذلك .

ـ ويذكر (الإصحاح نفسه) أن يوسف حلم حلمين ، بينما يذكر القرآن أن يوسف رأى رؤيا واحدة.

ـ ويذكر (الإصحاح نفسه) أن يعقوب هو الذي حرّض يوسف بأنْ يذهب إلى اخوته؛ لينظر في سلامتهم ، وسلامة الغنم، ويردّ لأبيه خبراً ، وهو أمر غير مقبول عقلياً ، فذهاب غلام وحده في أعماق الصحراء للبحث عن اخوته الكبار لا يستقيم عقلاً، بينما يذكر القرآن أن الإخوة هم الذين طلبوا من أبيهم أن يذهب يوسف معهم ، مدبِّرين أمر قتله .

---

(١) سورة المائدة ، آية: ٤٨.

كما أننا نستبعد ـ منطقياً ـ أن يقوى يعقوب ـ نفسياً ـ على إرسال الغلام الأثير لديه وهو يوسف (الذي قيل أن الذئب أكله) ؛ ليطمئن على سلامة إخوته الكبار والغنم ، ثم يردّ الخبر لأبيه ، مع أنه كان يتردد في إرساله في صحبة اخوته ... إنه تناقض (توراتي) واضح من كل الوجوه !!

وتتحدث التوراة عن سرعة تصديق يعقوب لأولاده ، بينما يظهر القرآن ارتياب يعقوب في أولاده ؛ بل واتهامه الصريح لهم قائلاً : { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً} [1]؛ وهذا هو السلوك الطبيعي !!

ويأتي القرآن بموقف الصراع الدرامي بين يوسف وامرأة العزيز { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ...} [2]، دلالة على عظمة يوسف الإنسان الوفي ؛ في الانتصار على الشيطان، والنزعات الإنسانية ، ثم يورد القرآن الأسباب التي أوردها يوسف تبريراً لموقفه العظيم، وهي عون الله له ؛ المتمثل في برهان ربه ، وصرف السوء عنه ، واصطفائه ، والوفاء لسيده (زوجها) ، وخشيته لله .

بينما لا تورد التوراة ذكراً لهذا الموقف الدرامي بكل جوانبه الإيمانية ؛ التي تحسب ليوسف الإنسان ، الشاب المؤمن ، سليل الأنبياء ... وهو الموقف الذي يعلمنا الكثير من القيم التربوية.

وقد ذهبت التوراة إلى أن المرأة أخذت قميص يوسف ، بينما يشير القرآن إلى أن المرأة لم تتمكن إلا من شق القميص من الخلف وهي تلاحقه .

ـ وبينما يتحدث القرآن عن إدانة العزيز لموقف امرأته ، تتحدث التوراة عن إدانة العزيز ليوسف نفسه ، وهو أمر غريب بالنسبة لشهادة الشاهد ؛ الذي ورد الحديث عنه في القرآن.

ـ وفي السجن يعمل يوسف واعظاً لأصحابه ، ويعلمهم التوحيد ، بينما لا تورد التوراة شيئاً من ذلك .

ـ وفي القرآن ما يفيد أن تعبير الرؤيا للمسجونين ، وللملك بعد ذلك كان بطلب من الآخرين ليوسف { نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[3]، أما في التوراة فإن يوسف هو الذي يرشح نفسه لتعبير الرؤيا .

ـ وفي القرآن إشارة إلى عام النجاة والرخاء (بعد مرور الأربعة عشر عاماً) ، بينما لم ترد في التوراة إشارة إلى ذلك.

ـ وفي القرآن يرفض يوسف الخروج من السجن إلا بعد ردّ اعتباره { فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} [4] .

بينما تذكر التوراة أن هذا الأمر ترك ليوسف نفسه بعد خروجه من السجن .

---

[1] سورة يوسف ، آية : ١٨.
[2] سورة يوسف ، آية : ٢٤.
[3] سورة يوسف ، آية : ٣٦.
[4] سورة يوسف ، آية : ٥٠.

ـ ونحن نجد أن شخصية النبي المتألقة ، وظهور الروح ، والاهتمام بالآخرة ، وحمد الله ، والثناء عليه ؛ معالم تتكرر عبر القصة في القرآن ، لكن في التوراة لا نكاد نجد شيئاً من ذلك ؛ بل تسيطر الروح القائمة على السرد الجاف للوقائع ، وكأن التوراة ليست كتاب وحي ، وهداية ، وتربية.

ـ وقد ذكرنا أن يوسف لم يتحرج من طلب مسئولية الإشراف على خزائن مصر :{اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ} (١) .

ولكن التوراة تذكر أنه لم يطلبها ، وأنها عرضت عليه ـ ابتداءً ـ من الملك .

ـ ولم يرد في التوراة تشاور الإخوة بعد بقاء أخيهم بنيامين عند يوسف ، كما لم ترد عودة الأبناء إلى يعقوب، بعد أن فقدوا أخاهم، ولم ترد أيضاً عودتهم إلى مصر لدى يوسف ؛ فكأنّ الرحلة التي قاموا بها إلى مصر رحلة واحدة ، وهي في القرآن رحلتان ، والثالثة ـ مع أبيهم يعقوب ـ هي الأخيرة .

ولم يرد في التوراة إرسال قميص يوسف إلى أبيه ، كما لم ترد فيها الإشارة التي تصور تفاؤل أبيهم يعقوب : { إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ} (٢).

ولم يرد في التوراة شفاء يعقوب من العمى بعد أن احتضن قميص يوسف وفيه عرقه الزكيّ(٣) ، بينما يفصل القرآن هذا الأمر تفصيلاً رائعاً ومعجزاً : { اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} (٤) .

وأخيراً لم يرد ختام ديني للقصة ، يتجلى فيه حمد الله ، والثناء عليه ، وعفو يوسف عن اخوته، وتقريره أن الله هو صاحب الفضل في رفعته ، وأن الذي يتقي ويصبر ؛ فإن الله لا يضيع أجره لا في الدنيا ، ولا في الآخرة .

ـ أما القرآن فقد عالج كل ذلك بأسلوب يقود إلى الاعتبار، وفقه السنن الكونية ، والاجتماعية ، مع بيان أن هذا القرآن يخلو من كل صور الافتراء ، وأنه تصديق للحق الذي جاء في الكتب السابقة، وتفنيد للباطل الذي ألحقه أصحاب الأهواء بها ، وتفصيل لكل شيء ، وهدى ورحمة للمؤمنين.

* * *

ومع ذلك فإن قصة يوسف ـ بوحدتها الموضوعية في القرآن ـ تعد أقرب القصص القرآني إلى ما ورد في التوراة ، وحسبنا أن الوقائع الأساسية للتاريخ واحدة في كلتا الروايتين ، إلا أن رواية

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٥٥.

(٢) سورة يوسف ، آية : ٩٤.

(٣) انظر الكتاب المقدس : سفر التكوين ، الإصحاحات ٣٧ـ ٥٠، ص: (٥١ ـ ٧٣) ، ط/ دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، وانظر مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص: ٢٥٠ ـ ٢٥١، (بتصرف) ، دار الفكر ـ سوريا ، ط/ ٤، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

(٤) سورة يوسف ، آية : ٩٣.

القرآن ـ كما أشرنا بإيجاز ـ تنغمر باستمرار في مناخ روحاني ، نشعر به في مواقف وفي كلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني ، فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ، ومشاعره في القرآن ، فهو نبي أكثر منه أباً ، وتبرز هذه الصفة خصوصاً في طريقته في التعبير عن عدم يأسه عندما علم باختفاء يوسف ، كما تتجلى في طريقته في التشبث بالأمل حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه .

وعلى النقيض من ذلك تذكر التوراة أنه شقَّ ملابسه نصفين ، وأخذ ينوح بصوت عالٍ عندما أخبروه بأكل الذئب ليوسف ، وهو سلوك لا يليق بنبيّ من أنبياء الله .

بل إن يعقوب كما يليق به كنبي أخذ القميص ، ولمَّا لم يجد به تمزيقاً ، ولا قطعاً قال لهم متهكماً : ما أحلم هذا الذئب الذي افترس ولدي ، ولم يخرق عليه قميصه ، ولم يُعمل في قميصه ناباً ، ولا ظفراً ، ثم قال لهم : { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} (١) ، فكأنه قاض حكيم ومحقق ماهر !

وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية محلقة ، سواء مع صاحبيه ، أم مع السجان نفسه ، فهو يتحدث بوصفه نبيّاً يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها ...

والرواية التوراتية لا تخلو من أخطاء تاريخية تثبت صفة (الوضع التاريخي) ، فمثلاً فقرة : "لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين ؛ لأنه رجس عند المصريين" يمكننا التأكد من أنها من وضع النساخ الميالين إلى أن يبالغوا في ذكر المحن التي أصابت بني إسرائيل في مصر .

فهذا الأمر إنما حدث بعد زمن يوسف وبعد تنامي ثروات بني إسرائيل، وبعد ذهاب دولة الهكسوس؛ التي كانت عوناً للساميين !! .

ـ وفي رواية التوراة استخدام إخوة يوسف في سفرهم "حميراً" بدلاً من "العير" في رواية القرآن ، على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل ، بعدما صاروا حضريين ، إذ الحمار حيوان حضري، عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة ؛ لكي يجيء من فلسطين ، وفضلاً عن ذلك فإن ذرية إبراهيم ، ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة الرحل ، رعاة المواشي والأغنام (٢) .

إن الإصحاح (السادس والأربعين) من التوراة يضم أسماء الذين صعدوا مع يعقوب من أبنائه، وأحفاده إلى مصر، وقد بلغ عددهم ستة وستين نفساً من صلبه ؛ عدا زوجات بنيه ، وعدا يوسف وابنيه اللّذين ولدا في مصر...

أما الإصحاح (التاسع والأربعون) فيروي قصة جمع يعقوب لبنيه قبيل وفاته ، ووصفه كل واحد منهم وصفاً فيه كثير من الغرابة .. وهو وصف لا يليق ـ في أسلوبه على الأقل ـ بنبي الله يعقوب (عليه السلام) .

---

(١) سورة يوسف ، آية : ١٨.

(٢) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص: ٢٥٢ ، ٢٥٣.

وقال عن يهوذا : إياك يحمد إخوتك . يدك على قفا أعدائك . يسجد لك بنو أبيك. يهوذا شبل أسد، من فريسة صعدت يا ابني ... رابط بالجفنة جحشه ، وبأفضل كرمه ابن أتانه . غسل بالخمر لباسه ، وبدم العنب رداءه . عيناه أشد سواداً من الخمر ، وأسنانه أشد بياضاً من اللبن.

زبولون : في سواحل البحر يسكن ، وعند مرفأ السفن ، وطرف تخمه إلى صيدون .

أشير: طعامه دسم ، وهو يعطى ملذات الملوك .

نفتالي: أيلة سائمة - وعل - يردد أقوال الحسنى .

يوسف: غض مفرع على عير... له فروع قد امتدت على سور (...) ثبتت قوسه بمتانة ، وتشددت سواعد يديه من يدي عزيز يعقوب (...) من إله أبيك الذي يعينك ، ومن القدير الذي يباركك . تأتي بركة السماء من العلو ، وبركات الغمر الراكد بركات الثديين والرحم . بركات أبيك تضاف إلى بركات آبائي ، إلى منية الآكام الدهرية ؛ لتكن على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته.

بنيامين : ذئب يفترس بالغداة يأكل غنيمة ، وبالعشي يقسم السلب (١) .

وهكذا كانت نبوءة يعقوب لأبنائه ... وهي لا تخلو في تعبيرها من غرائب وكلمات لا تليق !!

ويردّ (ليوتاكسيل) على اللاهوتيين ؛ الذين يرون أن ما نطق به يعقوب على فراش الموت هو نبوءات قائلاً : (إنه من الطريف أن نرى لاحقاً أن أحفاد لاوي لم يكونوا عاثري الحظ أبداً ، فإليهم بالذات منح حق وراثة إسرائيل بخيراته وامتيازاته كلها) (٢) .

وأيضاً - كما يقول (ليوتاكسيل) : (كان يجب على يعقوب أن يعطي البكورية إلى يوسف ، بكره من راحيل الحبيبة ، يوسف عزاء شيخوخة يعقوب ، ومصدر فرحه ، وثروة بيته ، لكن يعقوب اختار يهوذا ؛ يهوذا الذي حرض اخوته على بيع يوسف عبداً إلى تجار غرباء كان هو الأقرب إلى قلب يعقوب ، وله أعطى العجوز المحتضر حق البطريركية ؛ الذي كان جزءاً من تركته الإلهية) (٣) .

ونحن - من جانبنا - نتساءل : هل هذا الكلام شبه الخيالي يليق بنبي مثل يعقوب ؟ .. وما الفائدة منه؟ .. وهل ينسجم هذا مع لغة الوحي الكريم الواردة في القرآن ؛ والتي ينبغي أن ترد في كل الكتب السماوية ؛ مهما اختلفت لغاتها ..

وهذا فارق كبير بين أسلوب التوراة والقرآن ومنهجيهما .

---

(١) التوراة : التكوين ، الإصحاح التاسع والأربعون ، وانظر : التوراة السامرية : التكوين، إصحاح (٤٩) ، ص : ١١٠، دار الأنصار ، طبعة أولى ، مصر (١٩٧٨). وانظر : محمد عزة دروزة : تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، ص : ٦٢ - ٦٣ ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا - بيروت .

(٢) التوراة (كتاب مقدس أم جمع من الأساطير) ، ترجمة د/ حسان مخائيل اسحق، ص: ١٦٢، ط١، ١٩٩٤م، بيروت .

(٣) المكان السابق ، ونحن ننقل قول (ليوتاكسيل) مستدلين به على التناقض، وليس تأييداً له فيما يتصل باتهامات التوراة لأبناء يعقوب بأشياء أخلاقية !!

جـ - الإعجاز القرآني التاريخي في استعمال لقب (الملك) :

وهناك إعجاز تاريخي واضح ينفرد به القرآن في حديثه عن قصة يوسف (عليه السلام).

فعلى الرغم من أن المنهاج القرآني في التعامل مع التاريخ لا يلجأ إلى التحديد التاريخي ، والزماني ؛ المفصل للوقائع ، ويكتفي بالإشارة الإجمالية الضرورية ؛ التي تجعل الوقائع موصولة بزمان ومكان محددين ؛ وليس بتجريدات هلامية .. بعيداً عن التحديد الزماني الضيق ؛ الذي يلتزم به المؤرخ؛ نظراً لأنه لا يريد حصر مضامينه في المناخ التاريخي ، ونظراً لتباين المؤرخين الدائم والمستمر في اجتهاداتهم ؛ حتى في تواريخهم القريبة منهم ، والمعاصرة لهم ، وهو ما يكون من شأنه تعريض القرآن للتكذيب من بعضهم ..

مع ذلك .. وعلى الرغم من أن القرآن يكتفي بذكر الأزمان الضروري ذكرها .. إلا أنه على الرغم من هذا المنهج الذي يعتمده القرآن في التعامل مع التاريخ والزمان ، كما يعتمده - في رأينا - مع كثير من العلوم الأخرى التي يقدم بعض صور السبق الإعجازيّ فيها .. مقدماً المفاتيح والإشارات والتلميحات ليترك للعقل وتطور العلم - مساحة اجتهادية كافية ... وحتى لا يصادر حق العلم في البحث والتطور.

على الرغم من هذا إلا أننا نجد قصة يوسف في القرآن قد حسمت قضية تاريخية اختلف حولها المؤرخون ... لقد أثبتت السورة صحة الرأي القائل بأن يوسف دخل إلى مصر ، وبعده أسرته في عهد الرعاة (الهكسوس)؛ حيث أطلقت على الحاكم مصطلح (ملك) ، ولم تطلق مصطلح (فرعون) الذي وقع فيه كتاب التوراة .

إنَّ ثمة أغلبية من المؤرخين والأثريين قد انتهت إلى هذا الرأي .. فالمؤرخ المصري الأثري الشهير (أحمد كمال) في كتابه (العقد الثمين) ، والأثري الكبير (شاروبيم) في كتابه (الكافي) - قد انتهيا إلى أن نزوح يوسف ويعقوب إلى مصر - قد وقع حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، أي في عهد حكم الهكسوس العرب ؛ الذين تسربوا إلى مصر من سيناء وفلسطين .. وقد أضاف المؤرخ المصري (سليم حسن) أن جماعات من الخابيرو قد تسربت مع الهكسوس إلى مصر .

- ومن هؤلاء الخابيرو يعقوب وأسرته ...

- وكما كان حكم الأسر الفرعونية قبل الهكسوس شاملاً لفلسطين ، وأنحاء أخرى من بلاد الشام ، كذلك كان حكم الهكسوس (١) إلا أن الهكسوس ، وهم غزاةٌ وافدون ، قد احترموا تقاليد الحكم السابقة ، فلم يسموا أنفسهم بالفراعنة؛ وإنما أطلقوا على أنفسهم لقب "ملوك" ... وعدَّهم مؤرخو التاريخ القديم ، وعلماء الآثار حلقة انقطاع في سلسلة الأسرات الفرعونية الحاكمة .

---

(١) محمد عزة دروزة : تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، ص : ٦٣، ٦٤.

وثمة دليل آخر يقدمه باحث معاصر ، فقد كان الفراعنة حكام مصر يعدون أنفسهم آلهة ، وكثيراً ما حملوا لقب الإله، أو ابن الإله (١) ، إلا أننا لا نجد لهذا ذكراً ، ولا أثراً في الفترة التي كان فيها يوسف في مصر .. كما لا تدلّ عليه مسيرة الأحداث بين يوسف وملك مصر .. بل على العكس نجد ملك مصر قد فوَّض يوسف في كل شيء .. كما أن المصريين القدماء كانوا يؤمنون بعقيدة إله الشمس ، أو الإله رع ، وكان الفراعنة يدّعون أنهم آلهة الشمس ، أو أنهم ممثلو ألوهيتها في الأرض ...

ويرى الدكتور/ رشدي البدراوي : أن يوسف جاء إلى مصر في عصر الهكسوس خلال حكم الأسرة السادسة عشرة ... وقد اكتُشف شاهد في مقبرة كتب عليه اسم (فوتي فارع) ؛ الذي يعني (عطية الإله رع) ، والمذكورة في التوراة باسم (فوطي فار) وهو عزيز مصر (٢) ، ويؤكد هذا الاتجاه الدكتور/ محمد بيومي مهران في دراساته عن هذه الفترة (٣) .

وبأسلوب تقريري يؤكد د/ أحمد شلبي أن هذه الفترة كانت عصر خضوع مصر لحكم الهكسوس ، وقد أكد (لوح كامس) المكتشف عام (١٩٤٥م) الصراعات بين المصريين الساعين لتحرير بلادهم ، وبين الهكسوس ، ويذكر (السير ألان جاردينر) أن هذا اللوح (كامس) أهم مستند تاريخي في القرن العشرين ، وقد انتصر (كامس) في بعض الحروب؛ لكن الهكسوس ظلوا يسيطرون على جنوب الوادي ، ومساحة كبيرة من شمال الوادي .

ويقول د/ شلبي : "إنه في عهد يوسف كان السلطان في مصر لرعاة العماليق (الهكسوس) ، وكانت حركات المواطنين لا تفتأ تعمل للإيقاع بالهكسوس ، وقد تخبّط العماليق الهكسوس فتعاونوا مع غير المصريين بدليل أن (فوتي فارغ) أو (فوطيغار) أغرى يوسف عندما أصبح مديراً لخزائن الطعام بمصر ، وهو منصب يوازي (وزير التموين) .. أغراه برحيل والده يعقوب وأولاده إلى مصر فراراً من الجوع الذي عمّ بلادهم".

ويرى د/ شلبي أن رحيل يعقوب وأولاده إلى مصر نوع من تخبط العماليق وتعاونهم مع غير المصريين، ويبدو ذلك مما ذكرته التوراة من أن فرعون الهكسوسي أغرى إخوة يوسف أن يحضروا لمصر ، ووعدهم بالغنى والثراء قائلاً لهم : "خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إليّ فأعطيكم خيرات أرض مصر ، وتأكلوا دسم الأرض ، خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ، ونسائكم ، واحملوا أباكم وتعالوا ؛ ولا تحزن عيونكم على أثاثكم ؛ لأن خيرات جميع أرض مصر لكم" (٤) ، وسنرى أنهم استجابوا لهذه الدعوة السخية (٥) .

ومع أن د/ شلبي يذكر هذا كله فهو يكرر نقلاً عن التوراة مصطلح (فرعون الهكسوسي) مع عدم ملاحظته أن القرآن خلا من مصطلح (فرعون)، واستعمل مصطلح ملك ، وأن التوراة

---

(١) مراد محمد الدس : قيام إسرائيل العظمى ، ص: ١١٠.

(٢) رشدي البدراوي : قصص التاريخ والأنبياء ٤٥٢/٣، طبع مصر ١٩٩٧.

(٣) دراسات تاريخية ٥٢/٢، نشر دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية .

(٤) سفر التكوين : الإصحاح ٤٥ ، ص: ١٧ ـ ٢٠.

(٥) اليهودية ، ص: ٦٧، ط/١٢، ١٩٩٧م، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة.

ـ للأسف ـ هي التي وقعت في هذا الخطأ ، فلقب الفرعونية خاص بالأسر المصرية الحاكمة ، أو شبه المتألهة ... والتعبير التوراتي الذي نقله الدكتور شلبي يحمل تناقضاً في داخله ، فلقب فرعون خاص بالحكم المصري الوطني !!

ولقد أخطأ كتاب التوراة في إطلاق لقب (فرعون) على حاكم مصر أيام يوسف عند كل حديث عنه .. وقد ورد اللقب في التوراة مرات كثيرة ...

ويؤكد الشهيد سيد قطب (في ظلال القرآن) ؛ أن يوسف وبني إسرائيل قد وفدوا إلى مصر في عهد الرعاة الهكسوس [التي تعني رعاة الخنازير سخرية من المصريين بمحتليهم!!] ويحدد زمن مجيئهم بين الأسرتين الثالثة عشرة والسابعة عشرة ...

وهو يستنتج من بعض عبارات التوحيد والإيمان بالله ؛ التي وردت على ألسنة بعض المسئولين في مصر أن هذه العبارات كانت بتأثير إبراهيم وذريته على المصريين ، وذلك مثل قول الله على لسان عزيز مصر : {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ} ، وقول امرأة العزيز {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ}(١) ... وقول النسوة مجتمعين في يوسف {حاشا لله}(٢).

وبالتالي فإن يوسف وجد أرضاً تحمل بعض بذور الإيمان .. فسقاها ورعاها ... وأينعت في عهده بتلطف لا يبعث على ردود الأفعال .

إن قصة يوسف في القرآن لم يرد فيها لقب فرعون قط ؛ بل ورد دائماً لقب (الملك) .. فعندما تحدث القرآن عن رؤيا الملك قال:{قَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ} (٣) .

وعندما طلب الملك إحضاره ذكر القرآن :

{وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ} (٤) .. ومرة ثانية : {وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} (٥) .

وهكذا كان مصطلح الملك ؛ الذي التزمت به سورة يوسف في قمة الإعجاز ، بينما لم يستطع كتاب التوراة الوصول إلى هذا المصطلح، فمشوا في الطريق الذي كان معروفاً في الأسرات المصرية المالكة والحاكمة ، والذي كان شائعاً في الوثائق الفرعونية القديمة ، وهو مصطلح (فرعون) ، دون أن يدركوا أن مصر كانت تمر بعصر آخر لا تحكمها فيه الأسرات الفرعونية المصرية المتألهة ، وإنما تحكمه القبائل السامية القادمة من الجزيرة ؛ التي يغلب عليها الطابع القبلي ، ولم تعرف الفرعونية لا مصطلحاً ، ولا مضموناً ؛ بل إننا نظن أنه لو كانت أسرة فرعونية هي التي كانت تحكم مصر لما سمحت ليوسف بهذا التمكين في الأرض ؛ من أجل إنقاذ البلاد ، ولتركت البلاد تتعرض للموت والغرق ؛ اعتماداً على ألوهيتها وفرعونيتها ، وحكمها الوطني!!

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٥٢.

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ٦٧٧/٤، ط٧/ دار إحياء التراث ـ بيروت ١٩٧١م.

(٣) سورة يوسف ، آية : ٤٣.

(٤) سورة يوسف ، آية : ٥٠.

(٥) سورة يوسف ، آية :٥٤.

وبإيجاز فإن إطلاق مصطلح الملك وليس مصطلح (فرعون) على حاكم مصر يمثل إعجازاً تاريخياً ..قرآنياً .. متفرداً.

د ـ سورة يوسف وتصوير الحياة الاجتماعية في هذه المرحلة التاريخية :

بعيداً عن الدلالات السياسية التي تؤكد روح الاستبداد والاستعلاء لدى السّاسة في هذا العصر، والتي يؤكدها بوضوح إقدام العزيز على سجن يوسف ، وهو يعلم براءته لمجرد القضاء على الشائعات التي تلوكها الألسنة .

بعيداً عن هذه الدلالة السياسية ؛ ثمة دلالة اجتماعية خطيرة تفيدنا أن المرأة ـ في الطبقة العليا بخاصة ـ كانت تتمتع بنفوذ كبير ، وأن المرأة ـ من هذه الطبقة من الطبقات العليا في مصر ـ لم تكن تأبه كثيراً بنفوذ زوجها ، ولا شخصيتّه ، فهي تتصرف ، وتـُعبّر عن أهوائها بحرية كبيرة.

إن موقف عزيز مصر ، كما يصوره القرآن بخاصة ـ والتوراة بدرجة كبيرة ـ من هذا الأمر الذي نشأ بين زوجته ويوسف؛ كان موقفاً متخاذلاً ، يقترب بصاحبه من (الديوثية) ؛ أي انعدام الغيرة تقريباً، والسكوت على المنكرات في بيته؛ فقد اكتفى بتعليق ضعيف أورده القرآن على لسانه قائلاً : {يوسفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} (١) ، فالذي يهمّه هو أن يسكت يوسف عن الأمر ؛ حتى لا يشيع ، وأن تكف زوجته عن ملاحقة يوسف ، ولم نجد في التوراة ـ مع أنها ذكرت اتهام امرأة العزيز ليوسف بالمبادرة ـ ما يوحي باتخاذ موقف عنيف من زوجها تجاه يوسف ... بل استمر يوسف في القصر كما هو !!

ولعل التفسير الصحيح يتلخص في الثقة الكاملة لعزيز مصر في أخلاق يوسف ودينه، وإلا لما قبل هذا الوضع غير العادي ... وهذا تاج يستحقه يوسف الكريم النقيّ التقيّ (عليه السلام) .

ـ ولم يقف الأمر عند زوجة العزيز التي راودت يوسف ؛ بل مما يؤكد تفسخ الحياة الاجتماعية في الطبقة العليا؛ ما فعلته امرأة العزيز حين علمت بأن نسوة الطبقة العليا يتحدثن عنها حديثاً لا يسرّها، ليس لمجرد إقدامها على المراودة ؛ بل لأنها راودت (خادماً يعمل في قصرها) ، كان (عبداً) اشتراه زوجها .. فأغضبها حديثهنَّ عنها ، وأرادت تلقينهنّ درساً ، فدعتهنّ إلى بيتها كما يقول الله تعالى في القرآن : { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ} (٢) ، فالقضية هي مراودة (فتاها) ـ كذنب أول ـ ثم تأتي المراودة كذنب في الدرجة التالية .

ـ ولأنها تدرك حقيقتهن فقد اعتبرت أقوالهنّ مكراً ، ومحاولة للاستعلاء ، وليس تعبيراً عن جريمة مستغربة .. فقاومت المكر بمكر ، والمكيدة بمكيدة ، وكما يقول الله في القرآن : {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ....} (٣) .

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٢٩.

(٢) سورة يوسف ، آية : ٣٠.

(٣) سورة يوسف ، آية :٣١، ٣٢ .

وهكذا ردت الكيد بالكيد ، وانتصرت عليهنّ ، وأرتْهنّ أن هذا (الفتى الخادم) ليس بشراً عادياً كما اعترفن بألسنتهنَّ !!.

وهنا نقف عند هذا الاعتراف الجماعي، الدال على الإعجاب بيوسف من نسوة الطبقة العليا عندما قلن: إن يوسف ليس بشراً ؛ وإنما هو ملك كريم ، فهذا يعني أن هؤلاء النسوة لا يردعهنّ رادع، ولا يخشين أزواجاً ، ولا مجتمعاً ، فهنّ يعبّرن عن مشاعرهنّ بطريقة علنية صريحة وبتقطيع أصابعهن، وكأنَّ كل واحدة منهنّ قد دخل يوسف في قلبها فوراً ، فلم تستطع أن تعبّر عن إعجابها به إلا بهذه الكلمات الصارخة بالحب والرغبة معاً ، وكأننا نلمح ـ أيضاً ـ بأنه لا مكان لأزواجهنَّ في قلوبهنّ ، فهي قلوب مفتوحة فارغة، مستعدة للامتلاء بأي وافد ذي طبيعة جمالية كمالية مثل يوسف.

والقرآن يصور هذا على لسان يوسف عندما يقول:{ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}⁽¹⁾ .... فهي دعوة شاملة من نسوة ينتمين إلى طبقة متحررة متفسخة مترفة ...

ولماذا لا يكن مترفات ، وهن يأكلن الفاكهة ... وربما اللحوم ـ بالسكاكين ـ قبل عدة آلاف من السنين ؟!

وهذا بُعْدٌ يضاف إلى الأبعاد التي تؤكد على الطبيعة الاجتماعية المتحررة ، وعلى المكانة غير الطبيعية للمرأة في مصر في تلك العصور .

وأما البُعْد الأخير ؛ فيتمثل في هذه الصراحة التي تبلغ حدّ التسيّب الكامل ، والتي عبرت عنها زوجة العزيز أمام هذا الجمع بعد أن ردّت كيدهنّ ، وافتضحّن أمامها ، فقالت بكل جرأة وهي ترى أثر السكاكين والدماء باقية في أصابعنّ : {فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ} ⁽²⁾ .

ـ وهنا نلمح بعض الدلالات الإضافية على الحياة الاجتماعية، وحرية المرأة ؛ التي تصل حدّ الاستخفاف بالقوانين ، والابتذال في التعبير عن الرغبة.

ـ فامرأة العزيز ـ تعلن أمام الجميع ليشهدن عليها ـ أنها هي التي راودته عن نفسه ، غير مبالية بزوجها ، أو مكانته السياسية ، وغير مبالية بالمجتمع ، والقوانين ، وتعلن ـ أيضاً ـ إنه (استعصم)؛ أي أنه عصم نفسه منها ، ورفضها ، وتعلن كذلك بجرأة غريبة؛ قرارها الذي يقضي بخضوعه لرغباتها ، وضرورة تنفيذه كل أوامرها ..

وأخيراً تلغي الدولة، والقوانين قائلة : إنه إذا لم يفعل ما تأمره به من الفاحشة ليسجنْن وليعاملَنّ معاملة مهينة تجعله صغيراً في أعين الناس !!

إننا أمام لوحة حافلة بتصوير اجتماعي وسياسيّ معجز ـ مع الإيجاز الشديد الذي يصل أيضاً حدّ الإعجاز ـ وكأننا بهذه السطور القليلة نرى صورة المجتمع أمامنا ، ممثلاً في الطبقة الحاكمة،

---

[1] سورة يوسف ، آية : ٣٣ .

[2] سورة يوسف ، آية : ٣٢.

وأختها المترفة؛ اللتين بلغت فيهما المرأة هذه الدرجة من الجرأة ، ومن التبذل ، ومن السيطرة على الدولة ، والقوانين، لدرجة الوعيد بالسجن لمن لا يستجيب لنداء الفاحشة ، ملغية أجهزة الحكم، والقانون.

ـ ونحن لا نعتقد أن هذه الصورة لصيقة بعهد الهكسوس فقط في مصر ، فالمرأة كانت في كثير من عهود الأسرات الفرعونية الحاكمة شبه إلهه، وكان لها عالمها الخاص الكبير.

ـ وما كان أمام يوسف في مواجهة هذا التسيب القانونيّ ، والأخلاقيّ إلا أن يقبل راضياً بالسجن بعيداً عن هذا المجتمع ؛ الذي انحط إلى هذه الدرجة : {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} (١) .

ومن هنا نفهم لمحة أخرى تتعلق برفض يوسف الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته من خلال الوقائع التي مضت، ومن خلال اعتراف امرأة العزيز ، واعتراف النسوة ؛ حتى يخرج إلى المجتمع قائداً لاتجاه إصلاحي أخلاقي جديد ، يمكنه من خلاله أن يزرع الأخلاق، والقيم على أساس عقيدة التوحيد ، وهو لن يستطيع ذلك إلا إذا كان نظيفاً كل النظافة ، بريئاً كل البراءة ؛ بل على العكس يحمل صفحة بيضاء؛ حين قاوم أشد المقاومة أيام كونه خادماً ، وضعيفاً في بيت العزيز كل الإغراءات الغرائزية ، والفوضى الأخلاقية ، فكيف به وهو يُمَكَّن له في الأرض بفضل الله ؛ لإنقاذ البلاد والعباد ...

إنه بالتأكيد سيكون مثلاً أعلى ، وأقوى ، وأقدر على ذلك ..

ـ واللوحة بكامل أبعادها ـ كما بسطنا القول فيها ـ تقدم إعجازاً قرآنياً في تصوير الحياة الاجتماعية والنفسية لشريحة كبيرة من المجتمع المصري في هذا العهد ـ من جانب ـ ولمقاومة يوسف الإيمانية ، وحرصه على نقاء سيرته في كل الحالات ـ من جانب ثان ـ ولأسلوبها الموجز المعجز من جانب ثالث .

هـ ـ يوسف النبي البطل صانع التاريخ :

ـ لم يكن الأنبياء قادة في الشأن الديني فحسب ؛ بل كانوا قادة في صناعة الحضارة ، وقيادة التحولات التاريخية ...

منذ البداية ظهر علم الاقتصاد في حياة أبي البشرية نبي الله آدم (عليه السلام) ، فعندما أخرج الله آدم من الجنة وحرمه من المستوى الاقتصادي الذي كان يعيش فيه، توعده بالشقاء وحده ـ دون حَوّاء ـ { فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى} (٢) ؛ لأنه هو الذي سيكدح أكثر منها في الأرض... وعملية (الكدح)، تحتاج إلى معارف ، وعلوم متعددة.

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٣٣.

(٢) سورة طه ، آية : ١١٧.

وقد أخبر الله آدم بأن جنسه البشري كله سيعاني الصراع، والكفاح في سبيل البقاء:{وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} (١) ... إلا أن يلتزموا بهدي الله ، ويتعارفوا ، ويتكاملوا .

ـ ومعروف أن الصراع من أجل البقاء هو صراع اقتصادي وحضاري ؛ يدفع الإنسان إلى الاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية ، والبشرية ؛ من أجل زيادة الإنتاج ، ومن ثم زيادة القدرة على إشباع الحاجات (٢) ، كما يدفعه أيضاً ـ إن كان رشيداً ـ إلى استغلال القيم الأمثل لبناء الكيان الداخلي للإنسان.

وعندما امتن الله على آدم عندما كان في الجنة بقوله تعالى: {إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى* وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى} (٣) ، فإنه كان يلفت نظره إلى أنه يجب أن يكدح في الدنيا من أجل الحصول على الطعام والكساء والماء ، وإلا فإنه وذريته سيتعرضون للجوع ، والعرى ، والظمأ ؛ إذا تركوا العمل ، ونستفيد من هذه الآيات أيضاً أن آدم وحواء ـ بعد أن هبطا من الجنة ـ أصبحا مسئولين عن حياتهما على هذه الأرض في ظل رعاية الله وهدايته : { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً} (٤) .

* * *

وفي قصة نوح (الأب الثاني للبشرية) هناك ربط بين تحسين الصلة بالله ، والتخلص من الذنوب عن طريق الاستغفار ، والتوبة الصادقة ، وبين الحالة الاقتصادية ، فنوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : { اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً} (٥) .

وينصحهم بالنظر في خلق الله المعجز ، وإبداعه الكوني العجيب ، ويستنتج من حثهم على هذا النظر؛ أهمية السعي في الأرض ، واكتشاف مناحي الحياة فيها، وذلك يتجلى في قوله تعالى على لسان نوح : {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً} (٦) .

ـ كما أن صناعة نوح ـ عليه السلام ـ للسفينة ، سواء كان وحده ـ وهو ما يفهم من السياق القرآني ـ أم بمساعدة عدد من المؤمنين ؛ تُمثل بُعداً صناعياً متقدماً ، وتمثل صورة للحياة الاقتصادية التي عاشها نوح ـ عليه السلام ـ والتي كان عليها المستوى الاقتصادي لمجتمعه.

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٣٦.

(٢) راشد البراوي:القصص القرآني تفسير اجتماعي ، ص: ٢٢، ط١٩٧٨/١م، دار النهضة العربية ـ القاهرة.

(٣) سورة طه ، آية: ١١٨، ١١٩.

(٤) سورة طه ، آية: ١٢٣، ١٢٤.

(٥) سورة نوح ، آية : (١٠ـ ١٢).

(٦) سورة نوح ، آية : (١٤ ـ ٢٠).

ومما لا شك فيه أن سفينة تصنع ؛ لتحمل خلاصة الحياة القادمة من الأحياء بشراً كانوا، أو حيوانات ، أو نباتات ، إنما هي سفينة عظيمة ذات قوة عظيمة : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ} (١) ؛ بل إن السفينة ـ لقوتها ـ قادرة على مواجهة أعتى الأمواج : { وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ} (٢) .

* * *

إنَّ نبيّ الله يوسف (عليه السلام)؛ الذي مرّ بمرحلة العبودية والسجن، ينتقل فوراً إلى مرحلة (رجل الدولة) مرشحاً نفسه ـ وهو الخادم والسجين السابق ـ ليكون المسئول الأول عن خزائن الأرض في مصر.

إننا ـ هنا ـ أمام صورة أخرى تجمع ـ أيضاً ـ بين عظمة النبوة ، وكمال الإنسانية .

ـ إنه مسلح باستيعاب علوم دقيقة كثيرة ألهمها الله إياه تحقيقاً لقوله تعالى : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (٣) ، وهي علوم تقوم عليها ـ كما سنبين ـ وزارات كثيرة اليوم .. مع أنه شخص واحد .

وهو يضع نفسه في الموقف الصعب ـ مع الثقة الكاملة ـ في أن يتحمل المسئولية ـ بعون الله ـ في إنقاذ مصر من خطر داهم .

إنه يرشح نفسه لكي يكون رجل الدولة المفوض وحده ؛ لأنه القادر (الحفيظ العليم) على ذلك، وأن يكون موقعه بعد الملك مباشرة في السلطة ، وأن يكون له الإشراف المباشر على ما يمكن أن يوازي اليوم وزارات التخطيط ، والتموين، والزراعة ، والمالية ، والاقتصاد ، والعمل ، والثروة الحيوانية ، ووزارة القوى البشرية ، والتربية ، والتعليم ، والإعلام ، فضلاً عن أن يحمل لقب (عزيز مصر) ، علماً بأن لقب (العزيز) الذي يحمله يوسف يعني ـ بمصطلح هذه الأيام ـ منصب رئيس الوزراء (٤) .

ومن تيسير الله وتخطيطه سبحانه ليوسف أن الملك مع أنه لم يكن مسلماً؛ لكنه سرعان ما يستجيب ليوسف ، وكأنّه كان ينتظر رجلاً مثله في كفاءته وأخلاقه وأمانته ودينه، وكان يخشى على مستقبل البلاد ، لا سيما وأنه (حاكم وافد) ، وفي وضوح يتنازل عن سلطانه قائلاً ليوسف : "أنت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبل جميع شعبي ، إلا أن الكرسيّ أكون فيه أعظم منك ، وقد جعلتك على كل أرض مصر" ، ثم خلع خاتمه من يده وجعله في يد يوسف وألبسه ثياب بوص ، ووضع طوق ذهب في عنقه ، وأركبه في مركبته الثانية ، وجعله على كل أرض مصر ،

---

(١) سورة هود ، آية : ٤٠.

(٢) سورة هود ، آية : ٤٢.

(٣) سورة يوسف ، آية : ٢٢.

(٤) د/ عمر سليمان عبد الله الأشقر : حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية ، ص: ٤٨، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة .

وصاحب الأمر والنهي ، والأمر المطاع ، والكلمة النافذة ، فخرج يوسف وارتحل في كل أرض مصر لتفقد الأحوال اللازمة لمقاومة الجوع في البلاد .

وكأنّه بدأ العمل فوراً من خلال رحلة تفقد لأرض مصر ، وشعبها ، وقراره الفوري بتهيئة الأعمال الضرورية (١) .

وقد نجح التحول في المجتمع المصري من مجتمع وثني إلى مجتمع إنساني يخضع عن اقتناع لمنهج الإسلام وينقاد إليه ـ بواسطة يوسف (عليه السلام) ـ ولا شك أن يوسف قضى على المظالم وأنصف المظلومين في السجون وغيرها ، ثم أخضع المصريين للخطة الاقتصادية التي استمرت خمسة عشر عاماً، فيها سبع سنين دأباً ، ثم سبع سنين شداداً ، ثم عام رحمة وإغاثة .

وكان يوسف في كل ذلك الداعية المؤهل الكامل الذي يجمع بين الفكر والتطبيق ، ونور الوحي والعلم معاً .

وهذا المنهج العلمي الذي ظهر في سلوكيات يوسف فور توليه الأمور هو المنهج الإسلامي ؛ الذي يأمر بالأخذ بالحيطة والحذر والإحسان؛ أي الإتقان في العمل لأنه عبادة، حتى لو كان دنيوياً بحتاً كما يتصور الناس ، وكان الإسلام صاحب الفضل على يوسف، كما كان يوسف صورة رائعة للمسلم المؤهل بأسباب التمكين في الأرض ... فيوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم (يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) ، وبهذا الرصيد النبويّ وما علمه الله من الحكمة والإيمان طبق المنهج الإسلامي الاقتصادي في مصر، كما طبق المنهج التربوي ، وعلّم الناس الانضباط السلوكي والأخلاقي معاً .

وكان من أبرز الصفات في يوسف النبيّ القائد المسلم الداعية المؤهل لصناعة الحضارة الإنسانية ؛ وقوفه ضد المنكر باللسان والعمل ، حين وقف من امرأة العزيز هذا الموقف المعروف، ووفاؤه لرب الدار وتعففه ، وصبره على البلاء ، واختياره السجن إيثاراً لدينه وتقواه ، وحفظه ، وعلمه ، وأمانته ، وحرصه على طهارة ذيله ، وإظهار براءته.

وبهذه الأخلاق التي لا تجتمع إلا في نبيّ أوتي ملكات القيادة وأخلاق النبوة ، أنقذ يوسف البلاد والعباد ، وفرض روح التوحيد السامية على الحياة .

والحق أنه لا طريق لقيام حضارة صحيحة ، ونهضة تليق بإنسانية الإنسان إلا بالاقتداء بأنبياء الله وتجاربهم الرائدة ، وتقدم لنا سيرة يوسف إعجازاً في هذا الجانب ، ومع أن يوسف مرَّ بظروف صعبة ، وعمل مع الخدم ، ودخل السجون ... إلا أنه مع ذلك استفاد من كل هذه التجارب مع ما آتاه الله من العلم والحكمة ، وقدم لنا بسيرته وإنجازاته معجزة حقيقية ... صدق يوسف عندما عبر عنها ـ كما يذكر الله في القرآن في قوله تعالى ـ {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي

---

(١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، ص: ١٣١، ط/ الثانية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (ب ـ ت) .

حَفِيظٌ عَلِيمٌ} (١) ، كما صدق عندما قال في نهاية الرحلة، محدداً المعالم الكبرى للانتصار في معارك الحياة والحضارة : {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (٢) .

فيوسف أصبح الرجل الثاني وهناك من يقول إنه الرجل الأول ، ويتمتع بأكبر الصلاحيات في قيادة الدولة بعد الملك ، ويسيطر على أكثر من عشر وزارات من وزاراتنا الحالية ، وهذه الصلاحيات لا يستطيع القيام بواجبها إلا رجل مسلم مؤمن موحى إليه حفيظ عليم مجرب محنك ، نابغة في علوم الإدارة ، والتخطيط ، والاقتصاد .

ويبقى السؤال هنا : من أين ليوسف هذه الخبرة المركبة ذات الطبيعة العلمية المحكمة؟

إننا ـ بالتأكيد ـ نعلم أن الله قد أفاض على يوسف علماً كبيراً ، وذكاءً عبقرياً ، كما أشارت السورة إلى ذلك في قوله تعالى : {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ} (٣) ، وقوله:{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (٤)، وقوله{ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} (٥)، وقوله:{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} (٦).

لكن إلى جانب هذا الفيض الإلهي يبقى السؤال ـ في النطاق البشري العقلي ـ قائماً : من أين ليوسف هذه الخبرات العظيمة، ومن شأن الخبرات أن يكون فيها جانب كسبي!

ـ هل أخذها من كل مراحل حياته الماضية ، أم من مرحلة واحدة منها ؟ مع أن هذه المراحل كلها في رأينا ـ افترقت أو اجتمعت ـ لا ترقى إلى تخريج عبقري على هذا النحو اليوسفي ، فيوسف في حضن أبيه ، قبل أن يباع كان غلاماً ، أبعد ما يكون عن إدراك مثل هذه الجوانب ، ويوسف في بيت عزيز مصر كان خادماً ، أو رئيس الخدم على الأكثر ، معظم مهامه ـ إن لم يكن كلها ـ في داخل القصر .. فهل أفادت حياة القصر يوسف (الخادم) بما فيها أحياناً من مؤامرات ، أو وشايات ، أو مكائد ، وما تقتضيه من حيطة وحذر في التعامل مع ساكني القصر ، ومع الطبقة العليا؛ التي تزوره رجالاً ونساءً ؟ !

ـ ومع تقديرنا للخبرات التي يمكن أن يكون يوسف قد اكتسبها من هذه المرحلة، إلا أنها لا ترقى إلى أن تكون (مدرسة) تعلم يوسف فيها كل هذه الجوانب ، علماً بأن كثيراً من هذه الجوانب تحتاج إلى خبرات ميدانية، وعلمية ... فمصدر الوحي هو المصدر الأول والأسمى لعبقرية يوسف وعظمته ونبوته.

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٥٥ .

(٢) سورة يوسف ، آية : ٩٠.

(٣) سورة يوسف ، آية : ٦.

(٤) سورة يوسف ، آية :٢٢.

(٥) سورة يوسف ، آية :٥٥.

(٦) سورة يوسف ، آية :١٠١.

وفي رأينا أن السجن أو (المدرسة اليوسفية) ، حسب تعبير بعضهم ؛ قد أكسب يوسف بعض الخبرات لا سيما عن طريق المعتقلين السياسيين ؛ الذين يعرفون كثيراً من خبايا السياسة ، ومن أحوال البلاد في حياة يوسف الذي كان محصوله الثقافي ، والعملي، أقل ـ بدرجة ما ـ من مواجهة ما تتطلبه الحالة الاقتصادية المعقدة في مصر خلال أربعة عشر عاماً .

وغني عن البيان أن التعامل مع مرحلة (الوفرة) الأولى تحتاج إلى جهد لا يقل عن الجهود المبذولة في مرحلة (النّدرة)، ففي المرحلة الأولى أشار القرآن بإجمال شديد إلى المعالم الرئيسية لخطة يوسف:{قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ} (١) .

إنها الخطة السبعية الأولى في مرحلة الوفرة؛ التي توجب وضع خطة زراعية ، وتحقق أكبر مردود ، ثم بناء المستودعات والمخازن بشروطها التي تسمح بالحفاظ على المزروعات ، مع التقسيم الإداري والنظام المحاسبي الدقيق لهذه المرحلة ، ومع ضرورة حماية البلاد أمنياً في الداخل ، ومن الخارج.

وتتجلى لنا عبقرية يوسف التخطيطية التي تبلغ حدّ الإعجاز لاستمدادها من الوحي الإلهي ـ بالنسبة لظروفه وظروف عصره ـ ما تؤكده الدراسات الجيوهيدرولوجية من حدوث جفاف للنيل من واقع دراسات صخور الفيوم ، استمر لفترة ١٢ عاماً ، انقطع فيها الماء من النيل أكثر من نصف هذه المدة تماماً ، أي لم يكن هناك نقطة ماء في النيل (...) وهذا ما يؤكده التاريخ المصري عندما يذكر حدوث الجفاف في هذه الحقبة .

فعندما ولي يوسف ـ عليه السلام ـ خزائن مصر ، قام ـ بوحي من إيمانه ـ بإنجاز مشروعه العظيم بشق قناة النيل إلى منخفض الفيوم عبر فم الهوارة ـ اللاهون ـ وذلك لتخزين مياه النيل في ذلك المنخفض العظيم، كما أعاد شق بحر يوسف ؛ ليروي المنطقة الوسطى في زمن الجفاف .

وقد أصبحت منطقة هوارة واللاهون صمام الحياة لأرض مصر ، وتم إنجاز هذه الأعمال ثم تخزين المياه ، والمحاصيل في فترة سبعة أعوام الخير ؛ حتى حل الجفاف ، وانتشرت المجاعات، فجاء الناس من كل مكان طلباً للطعام .

لقد كان منخفض الفيوم بكامله خزاناً للمياه في عهد يوسف ـ عليه السلام ـ وأطلق عليه (يمّ يوسف) أي بحيرة يوسف ، فلمّا انتهت سنوات الجفاف كان منسوب المياه قد انخفض ، وظل على حاله حتى عهد موسى ـ عليه السلام ـ (٢) .

ونظراً للنقص في اليد العاملة ساعد الهكسوس قبائل من الساميين على الهجرة إلى مصر ؛ لما تربطهم بهم من علاقات قرابة ، فاستوطنوا منطقة الشرقية ، وحكموا فيها ، في ظل الهكسوس

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٤٧.

(٢) مراد محمد الدس : قيام إسرائيل العظمى (٢٠٨٣) ، دمار إسرائيل سـنة (٢٢٥٧)، ص: ١١٠ـ ـ ١١٢، طبعة ٢٠٠٢م.

ـ ملوك الرعاة ـ وأصبح لبني إسرائيل بما لهم من نفوذ اقتصادي ؛ السيطرة على الجزء الشمالي من البلاد (١) ؛ نظراً لعملهم التجاري ، ولقربهم من السلطة أيام الهكسوس.

ـ أما فيما يتعلق بالشق الثاني من الخطة الخمس عشرية فقد تم فيها توزيع الغلال ، والقمح من المستودعات التي سبق تشييدها في سنين الرخاء السبعة، وبهذا تمكن يوسف ـ عليه السلام ـ من إنقاذ شعب مصر من الجوع .

ومن مراحل الخطة الخمس عشرية وتنظيماتها، والنجاح في تطبيقها ؛ تطورت مفاهيم يوسف الميدانية، فأنشأ علم التخطيط للعلاقات الإنسانية مع الشعوب ، والقبائل المجاورة ، وذلك من خلال التبادل والتعاون الذي ظهر بين قوافل التجارة ، وبين الشعوب.

ومن المفاهيم الاقتصادية التي تعلمنا إياها قصة يوسف ـ عليه السلام ـ (علم الأسعار) ؛ حيث أشارت السورة (٢) إلى أحد مراتب الأسعار ، وهي الثمن البخس ، كما تعلمنا ـ أيضاً ـ (علم التقدير بالموازين أو المكاييل).

ومن القصة كذلك ؛ نتعرف على باب جديد هو (طرق التجارة) بين مصر ، والشعوب ، والدول المجاورة .

وكل هذه العلوم الاقتصادية وفروعها ؛ تعتبر من المدلولات والمفاهيم التي تكمل التخطيط، وتثبت العلاقات الدولية ، وتؤكد رسوخها (٣) .

لقد أثبتت لنا وقائع هذه المرحلة ـ بوفرتها وندرتها ـ أن الزراعة في مصر تعتمد على مياه الفيضان ؛ التي قد تكون في معدلها المعتاد أحياناً ، وقد تزيد عن هذا المعدل أو تنقص عنه.

كما أثبتت أن يوسف كان على معرفة جيدة بكيفية خزن الغلال ، وذلك بإبقاء المحصول في سنابله ؛ حتى لا يتعرض للتلف ، وأنه كان يتميز بالقدرة على تنظيم الأمور، معتمداً على الاقتصاد، وخزن المحصول باستثناء ما يلزم لأقوات الناس ، فإذا جاءت السنوات العجاف كان المخزون كافياً ، فلا يتعرض الناس للهلاك ، وبذلك يستطيعون اجتياز المحنة.

وأنه كان يدرك ضرورة الحدّ من الاستهلاك (ترشيد الاستهلاك) في أوقات الضرورة ، وما من شك أن الذين يضعون خطط التنمية في العصر الحاضر يهتمون اهتماماً كبيراً بموضوع الاستهلاك ، وبضرورة ضبطه ، أو ترشيده ؛ لأن الإسراف فيه يقلل من إمكانيات الادخار ، ومن إمكانية تمويل العملية الإنمائية .

---

(١) مراد محمد الدس : قيام إسرائيل العظمى (٢٠٨٣)، دمار إسرائيل سنة (٢٢٥٧)، ص:١١٠ ـ ١١٢، بتصرف.

(٢) {وشَرَوه بِثَمنٍ بخْسٍ دراهم معدودة وكَانُوا فيه من الزاهدين} .

(٣) دكتور/ نواف الحليسي : المنهج الاقتصادي في التخطيط لنبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ ص: ٤٣ ـ ٤٤، ط/ الثانية (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

وأن يوسف ـ في نهاية الأمر ـ كان ينظر إلى المستقبل ، ويرسم سياسة زراعية وتخزينية ، وهذا هو جوهر سياسة التخطيط الاقتصادي كما نعرفها في العصر الحديث (١) .

وتتضمن قصة يوسف ـ بالإضافة إلى كل ذلك ـ إشارة إلى علم دقيق من العلوم الحديثة وهو (علم التخصص وتقسيم العمل) ؛ الذي يعدّ جانباً من جوانب (علم الإدارة) ، فبعد أن اتضح لملك مصر (كمال علم يوسف) ، و(نقاء سيرته) ، و(سريرته) ، و(تمام عقله) ، و(رأيه السديد) ؛ عرض عليه أن يجعله من خاصته ؛ لكن يوسف طلب منه (عملاً محدداً) هو أن يكون مسئولاً عن الخزينة العامة ، أو وزارة المال والاقتصاد ؛ نظراً لتوقع يوسف حدوث خلل اقتصادي يستمر عقدين من الزمان، يحتاج في علاجه إلى من تتوافر فيه صفة الحفظ ، وصفة العلم، ولم يخجل يوسف أن يُظهر ملكاته، وقدراته في هذا الجانب ؛ حيث لا يحتمل الموقف المداراة ، أو الخجل ، فقال بوضوح شديد لملك مصر : {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} (٢) .

وهنا نستفيد من هذه السيرة المعجزة الدروس التالية :

١ـ أنه في مواقف الشدة لا يجوز الخجل ، أو المداراة ؛ بل يجوز طلب الولاية لمن علم في نفسه الأمانة ، والكفاءة في عمل ما ، أو تخصص ما.

٢ ـ أنه يجب على كل فرد؛ أن يظهر ما لديه من قدرات ؛ حتى يستفيد منها الجميع.

٣ ـ ويجب على ولي الأمر؛ إتاحة الفرصة لجميع الأفراد؛ لإظهار قدراتهم وكفاءتهم ، وذلك بتوليتهم الأعمال المناسبة (٣) لكفاياتهم ، وتخصصاتهم الدقيقة .

وجدير بالذكر أن (علم الإدارة) يرتبط بعلم التخطيط الاقتصادي ؛ الذي نبغ فيه يوسف ـ عليه السلام ـ ، وهو علم يقوم على (النظر في حل المشكلات المتوقعة) ، وذلك بداية بإدراك جوانب المستقبل المتوقع ، وذلك هو ما فعله يوسف؛ عندما وضع الخطة السبعية الأولى ؛ أي السنوات السبع التي يتوافر الإنتاج فيها ، ثم (الخطة السبعية الثانية)، وهي سنوات الجدب والقحط، وهذا يقتضي النظرة المستقبلية التي تمكن (المخطط الاقتصادي) من اتخاذ التدابير اللازمة لتحقيق الاستقرار الاقتصادي ، ومواجهة الأزمة المتوقعة لتوفير متطلبات الحياة الأساسية على أساس من التوازن.

ففي الفترة الأولى : (سبع سنوات الوفرة) خطط لها يوسف تخطيطاً محكماً قائماً على العمل الجادّ ، والشغل المستمر، والزراعة لكل المساحات المتاحة ، وتوفير المخازن اللازمة؛ لتخزين الفائض من الاستهلاك ، وادخاره للمستقبل ، وفي الفترة الثانية (سبع سنوات عجاف) وهي السنوات التي ستواجه فيها مصر، وشعبها صعوبات اقتصادية ؛ نتيجة القحط الشديد ، قام يوسف بالتخطيط الاقتصادي لسنوات الجفاف المقبلة على مصر وما حولها ؛ كي تكفي السنوات السبع

---

(١) راشد البراوي : القصص القرآني ، ص: ١٠٥ـ١٠٦.

(٢) سورة يوسف ، آية : ٥٥.

(٣) إيهاب محمد يونس : التخصص وتقسيم العمل في حياة الأنبياء ، ص: ١١، ندوة الجوانب الاقتصادية في حياة الأنبياء ـ مركز صالح كامل بجامعة الأزهر ، (صفر ١٤٢٥هـ / إبريل ٢٠٠٤م).

الأولى السبع الثانية .. والمرحلة كلها ... والمفاجآت المتوقعة كنزوح بعض المجاورين لمصر .. إلى غير ذلك (١) .

وهكذا يمكننا ـ دون مبالغة ـ أن نقول إن هذه العبقريات؛ التي تألقت في شخصية يوسف من خلال النص القرآني بومضاته القوية، وإشاراته المعجزة؛ لا يمكن أن تكون فكراً بشرياً عادياً ، وذلك ـ على الأقل ـ قياساً على مراحل حياة يوسف الصعبة ؛ قبل الوصول إلى المنصب ، فهذه المراحل: (طفولة في بيت يعقوب مع إخوة حاسدين متربصين ، وخدمة أقرب إلى العبودية في بيت عزيز مصر ، وسجناً قام على الظلم والافتراء) .

.... هذه المراحل لا تسمح ليوسف بامتلاك هذه العبقريات إلا أن يكون الأمر قائماً على نفحة إلهية ، وكرم رباني ، وذكاء خارق من يوسف ـ عليه السلام ـ .

وكل هذه المسيرة قد وردت على نحو محكم وبأسلوب معجز ، تؤكد قوله تعالى : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (٢) ، وهي ـ في الوقت نفسه ـ تقرع آذاننا منذ نزلت على رسول الله الأمي محمد ﷺ ، مقدمة لنا مفاتيح مضيئة لعدد من العلوم العصرية الدقيقة التي أنقذ من خلالها يوسف البلاد والعباد ، من أمثال : (علم التخطيط ، والإدارة ، والري ، والاقتصاد ، وتنمية الثروة الحيوانية ، والقوى البشرية) ، كما تقدم لنا ميزاناً طيباً نفرق به بين الغرور ، والثقة في النفس ؛ فالمغرور قد يحتل ـ في ظروف ما ـ موقعاً متميزاً ، فيفسد البلاد والعباد، لعدم ملكيته مؤهلات الموقع ، أما الواثق في نفسه فعليه أن يقدم نفسه من أجل المصلحة العامة، وليس المصلحة الخاصة، وهو إذا كان المؤهل الأكبر لإنقاذ الأمة ، ومنعه الخجل ، أو الحياء من تقديم نفسه ، وتزكيتها؛ كان آثماً ومسئولاً عن خراب البلاد ، مسئولية لا تقل عن مسئولية الصنف المغرور .

وهذه كلها علوم معاصرة تسهم في صنع الحضارة ، وهي لم تقدم لنا مجرد فكر وتنظير ؛ بل قدمت من خلال تجربة يوسف الميدانية ... سابقة بقرون كثيرة لعصرنا الحديث ... ومع ذلك غفلنا عن الإعجاز الحضاريِ الموجود فيها.

ثانياً : سورة يوسف ... والإعجاز الأدبي :

قد يبدو مصطلح (أحسن القصص) الذي ارتبط (بسورة يوسف) في القرآن راجعاً إلى أنها القصة ذات الموضوع الواحد ، وذات الحبكة الفنية التي يقوم عليها بناء القصة ...

ـ وربما كان ذلك واحداً من الأسباب ؛ لكنَّ هناك أسباباً أخرى كثيرة تتفرد بها سورة يوسف في القرآن ، فهي مع ـ وحدتها الموضوعية وحبكتها الفنية ـ تتنوع فيها الأساليب الجمالية، والمضامين التربوية؛ المستفادة من مجموع المواقف التي عرضت لها القصة ، وكذلك من تنوع العلوم والمعارف ؛ التي وجهتها القصة وجهة فنية تربوية ، دون أن تحتاج في ذلك كله إلى

---

(١) سعيد مراد : الجوانب الاقتصادية في حياة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ ، ص: ١٦، ١٧، ندوة الجوانب الاقتصادية في حياة الأنبياء ـ مركز صالح كامل ـ جامعة الأزهر (صفر ١٤٢٥هـ).

(٢) سورة يوسف ، آية : ٢٢.

عنصر الخيال؛ الذي يرتبط بالقصة التاريخية ، ويُلوِّن الأحداث بغير ألوانها الحقيقية ، وذلك لإثارة الانتباه، وإلهاب العواطف ، وتجديد الرغبات والإيقاعات ؛ لتتمكّن الأحداث الواردة من تحقيق الرياضة النفسية ـ على مختلف المستويات ـ بحيث تُحصِّن الفرد ـ من جانب ـ وتقود الأمم والجماعات إلى النهضة ـ من جانب آخر ـ .

لكن سورة يوسف بخاصة ، وقصص القرآن بعامة؛ تعتمد على سحر البيان بديلاً عن الخيال ، كما تعتمد على الدقة، والصدق في تصويرها؛ لتفاعل الأشخاص مع الأحداث (١) .

والفيصل هنا بين قصة يوسف وبين قصص القرآن الأخرى أنها ـ مع اعتمادها على كل ذلك ـ قدَّمَتْ قصةً كاملة في بناء درامي واحد، يبدأ بمجرد رؤيا ، ثم تمضي الوقائع لتنتهي بتفسير هذه الرؤيا على أرض الواقع ، ولعل من أهم ما يشار إليه من الإعجاز الأدبي في قصة يوسف ـ كما وردت في القرآن ـ أنها تقوم على هذه الرؤيا؛ التي رآها غلام في نحو ثلاثة عشر عاماً من عمره، وأن الوقائع جاءت بعد ذلك لتفسير هذه الرؤيا ، فكأنَّ للسورة جناحين : (الرؤية ثم تفسيرها).

وهنا يمكن أن يقال: إن هذا القدْر من حقائق القصة متفق عليه بين ما ورد في (سفر التكوين) في (التوراة) ، وما ورد في (القرآن) ... لكننا نردّ على هذا بأنَّ كثيراً من القصص قد تلتقي في هذا الإطار الفني العام؛ لكنّ بناء القصة من الداخل ، سواء في الأسلوب ، أم في بناء الأحداث ، أم في توظيف الوقائع ؛ لتحقيق أهداف عليا سامية ، توجه الفرد والجماعة إلى أساليب الصناعة الحقيقية للإنسان في صراعه مع قوى الشرّ الداخلية الموجودة في كيانه ، والخارجية الموجود في المجتمع ... ـ هو ما تفضل به قصة على أخرى ـ وهذا ما تفردت به سورة يوسف .

لقد تفردت قصة يوسف ببنائها الداخلي وحركة الأحداث، مع تنوع الأفكار والمعطيات .

إنَّ وقائع القصة تأتي منسجمة لتحقق التطبيق العملي للرؤيا ، وبالتالي تتحدد الأدوار حسب مقتضيات (الحبكة الفنية) ؛ التي تتصل (بالحكمة الإلهية)؛ فليعقوب الأب (عليه السلام) دوره ؛ الذي يمكن أن يوصف بأنه دور سلبي ، يقتصر في معظمه على الحزن ، والبكاء ، إلا أنه هنا في نطاق الحكمة والإعجاز يتحول إلى (بكاء إيجابي) ، وإلى (موقف) ؛ بل إلى (سياط) يجلد يعقوب بها معنوياً ضمائر أبنائه المتآمرين ... هؤلاء الأبناء ؛ الذين يعيشون في كل يوم معه ، ويأكلون معه ، مما يؤكد لنا أنَّ هذا (البكاء الإيجابي) أحبط الهدف الذي سعى إليه المتآمرون عندما قالوا : { اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ} (٢) ... فما خلا لهم وجه أبيهم ؛ بل كان يوسف يعيش مع مشاعر أبيه أكثر مما يعيشون هم معه ، وأصبح يوسف يمثل (الشعور)، بينما انزوى اخوته المتآمرون في دائرة (اللاشعور) بالنسبة لمشاعر أبيهم.

ثم إنهم ما كانوا بعد التخلص من يوسف (قوماً صالحين) كما وهموا ؛ بل ظلوا موضع شك واتهام من أبيهم ، وهو شك مقرون بالخوف من أبيهم على (بنيامين) شقيق يوسف، ويتجلى ذلك عندما طلبوا من أبيهم أن يذهب (بنْيامين) معهم لطلب الميرة من مصر ، ففي هذا الموقف أظهر

---

(١) د/ نواف الحليسي : المنهج الاقتصادي في التخطيط لنبي الله يوسف ، ص: ٥٤.

(٢) سورة يوسف ، آية: ٩.

الأب المقهور الخائف من أبنائه ما كان يخفيه من مشاعر نحوهم ، وشكوك فيهم قائلاً : {هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ؟} (١) .

وقد عهدنا في قصص القرآن ـ وفي القصة بوجه عام ـ أن تتعلق الرؤيا بموقف بسيط ، أو بمواقف محددة، حتى في القصص التي وردت شبه كاملة ، مثل قصص هود ، وصالح ، وشعيب، فإنها جاءت مجملة موجزة كل الإيجاز ... فكأنها مجرد موقف أو مواقف للعظة والعبرة، أما قصة يوسف فإن الرؤيا فيها مركبة تختزل الأحداث كلها ، و توحي بالأمرين المتناقضين معاً ، وهما ما سيكابده يوسف في حياته ، وهو الأمر الذي تنبأ به أبوه ؛ الذي استشرف آفاق الغيب ، فقال لابنه: { فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً} (٢) بكل ما تحمله من دلالة درامية، ثم النهاية السعيدة ؛ التي تتمثل في قول يعقوب ليوسف بعد انتهاء مراحل الصراع (الدراما) :{وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} (٣) ... والقصة تقدم بين هاتين الشارتين (البداية والنهاية) تفاصيل دقيقة، تاريخية ، ونفسية ، وتربوية مع الاحتفاظ بالحبكة الفنية.

وكلمة (يجتبيك) تعْني (الاصطفاء) ، والاصطفاء يعني النبوّة ، أو إعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة بصفة عامة ، وهو ما يندرج أيضاً تحت النُّبوة التي هي قمة العظمة الإنسانية.

أما جملة { وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} فتعني معرفة الغيب الذي يمن الله به عليه ، كما تعني تفسير الرؤى تفسيراً يأتي مطابقاً للواقع.

ـ ونحن نعجب من وضوح الإعجاز ؛ عندما تدخل الرؤيا عالم الواقع بهذه التفصيلات الدقيقة، وذلك ـ أولاً ـ في تحديد يعقوب (للخطوة الأولى) من خطوات المؤامرة ؛ التي دبرها أبناؤه ؛ بل ووسيلتها الكاذبة وهي (الذئب) ... ثم في السياق المتدرج نفسه ـ ثانياً ـ وأخيراً في تحديد نتائج المؤامرة ؛ التي دبرها إخوة يوسف وهي (تمام النعمة على يوسف واصطفاء الله له).

وبين هذين الإعجازين تتحرك الوقائع في سورة يوسف (أحسن القصص) .

* * *

إن العرض القرآني لقصة يوسف يؤكد أنها (أحسن القصص) ، ليس لمجرد الإعجاز الأدبي ، أو الغيبي ؛ الذي قام على أساس تطبيق واضح لرؤيا يوسف فحسب؛ بل هي (أحسن القصص) ؛ لأنها تجمع كثيراً من العلوم ؛ التي لا تجتمع في شخص واحد ، ولا في عمل فني واحد ... ففيها تجد علوم الاقتصاد، والإدارة ، وإدارة الأزمات ، والتخطيط ، والرؤى ، والأرواح ، وتحليل النفس البشرية (علم النفس) ، وفيها كثير من القيم التربوية ، والأخلاقية؛ المستفادة من سير الملوك والممالك ، وحسن السياسة ، وتدبير الملك ، وإقامة العدل ، ونظام الدولة ، ومكر النساء ، والاصطبار على الأذى، والعفو ، والتجاوز عن هفوات الأقارب .

---

(١) سورة يوسف ، آية: ٤١.

(٢) سورة يوسف ، آية: ٥.

(٣) سورة يوسف ، آية: ٦.

ومن جانب آخر تتجلى مكانة القصة في أنها (أحسن القصص) لأمر عجيب نادر الوقوع في (القصص) ، وفي (الواقع) ... ففي البداية يخيم على القصة جوّ من التآمر الجماعي ، والحزن؛ إذ أن إخوة يوسف كانوا مشْبعين بالحقد ، والحسد ، والخيانة ، والتواطؤ ، والكذب ... وقد عانى يوسف الكثير خلال هذه الفترة ، وكان أبوهم يواصل الأحزان ، ويعاني الاكتئاب، والشعور بالمؤامرة .. ويخيل إليّ أن الإخوة لم يكونوا سعداء بعد المؤامرة .. فهم لم يكسبوا شيئاً منها ... بل خيم نوع من الشك والحزن على الجميع ...!!

ـ ومن العجيب الذي يبصره أصحاب الرؤية الداخلية لوقائع العمل الأدبي ؛ حركة الأحداث بعد ذلك بين أحزان ومسرات ومشاعر تبدو متناقضة ...

ـ فيعقوب : لم ييأس ؛ بل كان يشعر بريح يوسف ..

ـ ويوسف : يصبح سيّد بيت عزيز مصر؛ المؤتمن على ماله، وعرضه ، وقصره ... ثم يتعرض لمؤامرة يدخل السجن بسببها ..

ومن الإعجاز القرآني هنا ؛ ما تحدث به القرآن عن هذه اللحظات التي يدخل فيها يوسف بيت عزيز مصر (خادماً) ، ورقيقاً ، ثم سيداً للخدم ... إنه يسميها (تمكيناً) ... مع أن يوسف دخل رقيقاً خادماً، وكان في الثالثة عشرة من عمره ـ حسب ترجيحنا ـ يقول الله تعالى : { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} ... فأي تمكين هذا؟ إنه الخطوة الأولى في طريق التمكين ، وهو ـ أيضاً ـ النقلة الكبيرة ... من الجب إلى القصر ... لقد وضع يوسف في أرض المعركة ... معركة اختبار معدنه ليصقل ، ثم ليمكن التمكين الثاني والأخير ... التمكين الذي يتبوأ فيه ما يشاء من أرض مصر ...

إن هذه الآية في هذه المرحلة (بداية مرحلة الاسترقاق) إعجاز رباني ... إنها تكشف مرحلة غيبية من مراحل التخطيط الإلهي ... لكي نؤمن ـ راضين ـ بهذا التخطيط الذي يقلب المحن إلى منح ...

ـ وأما إخوة يوسف ـ على الشاطئ الآخر للأحداث ـ فيواصلون التمثيلية؛ التي لم تواتهم الشجاعة ، ولا صحوة الضمير للإفصاح لأبيهم عن حقيقة فعلهم الشنيع !

ـ والحكمة الإلهية هي ـ وحدها ـ الفاعلة القادرة على توجيه الأحدث ، فتتربص امرأة العزيز بيوسف، ثم يتحول السجن إلى مطلب عزيز ليوسف ، لدرجة أنه يحبه ، ويتمناه قائلاً :{ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}⁽¹⁾ ؛ حتى يحميه السجن من الوقوع فيما يدعونه إليه .

ـ وليس ما يدعونه إليه إلا المجد الزائف القائم على الخداع ، والانحطاط ؛ الذي يسعى إليه كثير من ذوي النفوس المريضة ، والأخلاق الوضيعة عبر كل العصور !!

* * *

---

(1) سورة يوسف ، آية : ٣٣.

ـ ومع هذا تتحرك الأحداث متدرجة بدون قفزات إلى أن تظهر (رؤيا أخرى) يُتمّ الله بها أمره، ويتحول بها مسار حياة يوسف ... من عبد وسجين إلى الرجل الأول في مصر بعد الملك ... فيكاد يسيطر على أهم الوزارات ، ويحمل لقباً يضاهي لقب (رئيس الوزراء) في عصرنا .. ويصبح (الملك الهكسوسيّ) مجرد رمز يملك، ولا يحكم ...

ـ وفي نهاية الأحداث تقع مفاجأة ليس من المبالغة القول : إنها ـ بحدّ ذاتها ـ تمثل إعجازاً فوق طاقة البشر ...

ـ إن كل الشخصيات المشتركة في الأحداث قد فازت بنهاية سعيدة ... الجاني ، والمجني عليه...

ـ لقد نجا يوسف من البئر ، والإثم ، والسجن ، وسوء السمعة ، وتبَّوأ عرش مصر ـ من الناحية العملية ـ والتقى بأبويه ، وسجد الجميع له كما ورد في الرؤيا ..

ـ إن يوسف يعترف بهذا التخطيط الربانيّ المحكم ... فيقول لأبيه : {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ البَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ} (١) .

ـ وانفرجت أزمة يعقوب ، وردّ الله إليه بصره ، وانتهت الأحزان ، والآلام ، ودخل مصر والداً لرئيس الوزراء ...

ـ وقد عولجت قلوب إخوة يوسف ـ إلى حد كبير ـ من الحقد، والحسد ... وطلبوا من أبيهم المغفرة ... ومن يوسف التجاوز عن خطئهم ... فعفا عنهم ، وقال لهم :{لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (٢) .

وكذلك أنقذت امرأة العزيز ـ والنسوة ـ من العار؛ الذي كان قد اقترب منهنّ ، ومن الحبّ الحرام ، ومن الإثم ، والخيانة ، واعترفن بالحقيقة ... فبرئت ساحتهن ، وشهدن في يوسف شهادة حق وصدق : { قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ..} (٣) ، واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة بأقوى بيان قائلة: {الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} (٤) .

---

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٠.

(٢) سورة يوسف ، آية : ٩٢.

(٣) سورة يوسف ، آية : ٥١.

(٤) سورة يوسف ، آية : ٥١.

بل إن أبناء مصر كلها (١) ـ ومن كان يعيشون حولها ـ قد أصابتهم الخيرات ، وأنقذهم الله من الفوضى ، والموت جوعاً .. بسبب يوسف .. وبسبب ظهور يوسف على مسرح الأحداث في تلك الفترة من الزمان ...

* * *

تتميز قصة يوسف بطولها النسبي ـ بالنسبة للقصة القصيرة ـ وباستيعابها لعناصر القصة الأساسية ... بيد أن طولها لا يبعدها عن حقل القصة القصيرة (أو الوسط) بين القصة القصيرة والطويلة ، وتكاد حركة الأحداث فيها تصل بها من الناحية الكيفية، والتأثيرية إلى مستوى الرواية... وإن لم تصل لمساحة الرواية كمّياً ...

والسؤال هنا : لماذا لا يكون لنا تقسيم خاص مستمدّ من تراثنا ومفاهيمنا للقصة ..؟! إن قصة يوسف تقدم نموذجاً معجزاً في جمعه بين الكم المحدد ؛ الذي تقف آياته عند (١١١ آية) ... لكن تأثيره الفني ، والتربوي يتجاوز تأثير الرواية الطويلة ...

إننا نرى قصة يوسف تنقسم إلى حلقات ، وكل حلقة تضم عدداً من المشاهد ... وبين المشاهد توجد فضاءات متروكة لوعي القارئ يسعى من خلالها إلى إدراك التفصيلات الكثيرة الصغيرة ؛ التي لا يرى البناء الفني ، والحكمة الربانية فائدة من الوقوف عندها ... ومن جانب آخر تدريباً للوعي ـ وجداناً وعقلاً ـ كي يتحرك فيها .

إننا لا ينبغي علينا أن نلزم إبداعنا بالمواصفات ، والأطر نفسها ؛ التي يلتزم بها غيرنا ... وحسبنا أن نلتقي في الشروط الأساس شكلاً ، ومضموناً ، وحبكة فنية .

ومن الجدير بالتنويه ـ ابتداءً ـ أن قصة يوسف عملٌ فني ، تتكامل فيه مراحل الحدث الثلاث من بداية، إلى وسطٍ ، إلى نهاية، وتقوم بين هذه الأجزاء الثلاثة خيوطٌ واضحة ؛ تسمى أحياناً بالعلاقة العضوية .

كما تتوافر في هذا العمل الفني (قصة يوسف) مقومات القصة ؛ من شخصيات متعددة ، وأحداث متساوقة بشكل طبيعي ، وحوار موضوعي ، وتدفّق ، وسلاسة ، كما تتحقق فيها الخصائص الفنية الضرورية ؛ مثل السرد، والوصف ، وعدم الاستطراد ، والتشويق (٢) .

وتأخذ الشخصيات حجمها الطبيعي ، فيوسف (البطل) بعالميه الداخلي والخارجي يأخذ المساحة الأكبر اللائقة به ... إنه ـ في داخله ـ ملك كريم ، يكاد يخرج من نطاق البشرية ، كما أنه ـ في خارجه ـ شريف لم يعلم عنه سوء ، أو فحشاء ؛ بل هو مصطفى من الله.

وتأخذ الشخصيات الثانوية حجمها من علاقتها بالبطل ؛ فمنهم من يظهر في موقف واحد ، أو موقفين ، ومنهم ـ مثل آل يعقوب ـ من يأخذون مساحة أكبر لعلاقتهم المصيرية بالبطل.

---

(١) محمد رشدي عبيد : قصة يوسف في القرآن الكريم ، دراسة أدبية ، ص: ٤٦ ، ٤٧ (بتصرف) ، دار العبيكان، وانظر عمرو خالد: يوسف(عليه السلام)، ص: ٥١، ٥٢، ط/١، أريج للنشر والتوزيع ، القاهرة .

(٢) عبيد : المرجع السابق (بتصرف) ، ص: ٢٥.

ـ ولم تخل القصة ـ لإعجازها ـ من أحداث غريبة على بعض العقول المرتهنة بمحصّلة البشر المحدودة من العلم في ظرف من الزمان ، أو المكان ، لكنَّ قدرة الله ـ سبحانه ـ غير إمكانات الإنسان ... وهكذا كان ، فقد شمَّ يعقوب النبيّ ريح يوسفَ من قميصه ، واستعاد به بصره بعد إلقائه على وجهه (١) .

لقد كانت مقومات الحبكة الفنية ـ في اختيارها للأحداث ، وفي إنمائها، أو تجميدها، وما فيها من إثارة ، وصراعات ـ حبكة ناجحة بداية بحالة التوازن الداخلي ، وتوسطاً بكسر التوازن بطريقة مباشرة ، وأخيراً بتأزم الموقف وبلوغه الذروة ، وكسر حدة الصراع وصولاً إلى انفراج الأزمة الداخلية والخارجية.

ـ وكل ذلك يمضي في تدرج صاعد نحو ذروة الأزمة ، أو بتدرج هابط نحو الانفراج ، كما يقول الدكتور/ محمد الزير في كتابه عن (القصص في الحديث النبوي).

ولم تخل القصة من تشويق يُعَمّق الحبكة في كل مراحل القصة ، ولعل بدايات القصة ونهاياتها من أكثر المراحل تشويقاً وجاذبية .

كما لم تخل من بعض الغموض المعتمد على الغيبيات في أكثر الأحايين، وهي ـ ببعض الغيبيات الواردة فيها ـ تضفي روحاً إيمانيَّة على الأحداث ، وتقدم توازناً بين فعْل الله ـ سبحانه ـ وفعل الإنسان في حدود مسئولتيه .

* * *

ومن الجدير بالذكر أن قصة يوسف في القرآن تقدم نموذجاً لقصة لا تبلى كلماتها ولا دلالاتها؛ بل هي خالدة خلود القرآن ـ وهذا إعجاز في حدّ ذاته ـ إذ إن القصص البشري يرتبط بالزمان والمكان ارتباطاً إلزامياً تفصيلياً ... بحيث تشم فيها رائحة زمان الأحداث ومكانها ... دون أية روائح إضافية ... لكن سورة يوسف لم تلتزم بهذا الاستغراق التفصيليّ في الزمان والمكان ... بل أشارت إليهما ، ثم عبرتهما عبوراً يشعرك إجمالاً بالزمان ، والمكان ؛ لكنه لا يجعلك أسيراً لهما ... إنه إعجاز أدبي فريد ؛ بل هو توجيه للأديب المسلم ألاّ تشغله التفصيلات الدقيقة للزمان والمكان عن الدلالات المستوحاة ، وعن القيم؛ التي يمكن أن تستخلص ... فليس الأديب المسلم ـ وهو يصور الأبعاد الزمانية والمكانية ـ صاحب (كاميرا فوتوغرافية) ؛ بل هو انتقائي يأخذ من ملامح الزمان ، ومعالم المكان ما يفيده في تحريك الوقائع المادية ، واستخلاص قيم الجمال والكمال !!

ـ إن الزمان يعانق الأحداث في قصة يوسف وفاقاً لهذه المنطقية الفنية ، وبالتالي تترتب فيها النتائج على المقدمات ، أو تنتقل الشخصيات من حالٍ إلى حال بدافع من أسباب سابقة ، عبْر تسلسل زمنّي له أثره في السير بالأحداث إلى النهاية في حركات مضبوطة وخطوٍ منتظم ، مع ملاحظة اهتمام القصة الرئيسي بزمن البطل .

---

(١) المرجع السابق ، ص:٣٦.

أمّا أزمان الشخصيات الثانوية الأخرى فقد كانت تظهر في لحظة من حياة البطل الزمنية ؛ لتؤدي دورها ، وتغيب نهائياً ، أو تعود ؛ لإكمال ذلك الدور بعد حين.

أمّا الزمن - باعتباره ظرفاً تحدث فيه وقائع القصة التفصيلية - فلم تحدِّده القصة دائماً ؛ إنما ذكرت الأزمان الضروريُّ ذكرُها في البناء القصصيّ مثل قوله تعالى : {وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ} (١) ، لما لهذا الوقت من دلالة ، وأهمية في محاولتهم إخفاء بكائهم المصطنع على وجوههم عن أبيهم ...

ولا يختلف تناول القصة للمكان عن تناولها للزمان، إذ تذكر أسماء الأماكن التي يجدر ذكرها؛ لإعانة القارئ على تحليل الأحداث الواقعة فيها ، وفهمها حق الفهم ، ولا يخفى ما لبيئة الأحداث من أهمية في وقوعها بالشكل الذي وقعت به ... لقد أوردت القصة أنَّ يوسف بيع في مصر : {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} (٢) ؛ ليعلم القارئ أن الأحداث التي مرَّت ببطل القصة إنما كان مسرحها (مصر) كما تشير إحدى حوارات يوسف مع أهله بأنهم كانوا يسكنون البادية :{ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ} (٣) ؛ بل إن القصة أشارت إلى (البئر) ؛ التي ألقي فيها يوسف ، و(بيت العزيز)؛ الذي نشأ فيه ، و(السجن) ؛ الذي امتُحن به ، و(العرش) ؛ الذي رُفع إليه ، فأضفت - بإشاراتها تلك إلى الأمكنة - أجواءً من الجدّية، والحيوية ، والواقعية على البنية القصصيّة (٤) .

* * *

لقد قدمت لنا قصة يوسف - كما جاءت في القرآن - معجزة في جمعها - وهي قصة تاريخية واقعية - بين مجموعة من الآفاق ، والدلالات ، فهي وقائع تاريخية صادقة تماماً ، فالله - سبحانه وتعالى - لا يصطنع قصصاً غير واقعية لتعليم البشر ، كما يقول (محمد خلف الله) صاحب كتاب (الفن القصصيّ في القرآن)، وأمثاله : "والله - حاشاه - لا يحتاج إلى تلفيق قصص على النحو البشري وهو العليم المحيط" .

ومع تحقق الإعجاز التاريخي في هذه السورة ؛ فإنها تقدم لنا (قصة واقعيّة) تتوافر فيها شروط القصة - دون حاجة إلى الخيال ، أو التلفيق - مستعيضة عن ذلك بالمزج بين العناية الإلهية، وعالم الغيب ، وفعل الإنسان ، والعبر المستخلصة ؛ التي تتناثر عبر القصة.

لكن هذه الواقعية الفنية الإسلامية ... لا تعتمد الكذب أو الخيال ، ففي الواقع ما يغني عن الكذب .. ثم إن الواقعية - كما نلمسها في سورة يوسف - ترفع هذه الواقعية إلى آفاق السموّ الإنساني ... فلا تترك الواقعية تقتل القيم أو إنسانية الإنسان ، وبالتالي تهبط باسم الواقعية إلى المستوى الحيواني - عرضاً وإغراءً - كأن الإنسانية تعيش في حظائر، وليست في مجتمعات إنسانية ... وحتى الواقعية الجنسية الممثلة في سلوك امرأة العزيز والنسوة اللائي أظهرن

---

(١) سورة يوسف ، آية : ١٦

(٢) سورة يوسف ، آية : ٢١.

(٣) سورة يوسف ، آية : ١٠٠.

(٤) عبيد : قصة يوسف (عليه السلام) في القرآن ، دراسة أدبية ، ص: ٣٩- ٤٢(بتصرف) .

ـ بوضوح واقعي ـ رغبتهن في يوسف ، وتغزّلن فيه بطريقة سافرة ... حتى هذه الواقعية تبقى في إطار المستوى الإنساني البعيد عن الهدم، وعن الهبوط بالقيمة الإنسانية ... حتى وهي تتحدث عن الجنس؛ فإنها تتحدث عنه بحيث يبقى في المحيط الإنساني.

ولِعِلمْ الله ـ سبحانه ـ بحديث الإفك ؛ الذي سيرتكبه بعض المنحرفين ، حين يزعمون أن القصص القرآنيّ لا يقوم على الصدق الواقعيّ ، وإنما يقوم على الصدق الفني وحده ـ ردَّ الله على هؤلاء في آخر القصة قائلاً للرسول محمد ـ ولنا جميعاً :{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى ولَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (١) .

مؤكداً بهذا إمكانية الجمع بين الصدق الواقعيّ ، والصدق الفنيّ ، والعناية الإلهية ، وفعل الإنسان في التاريخ ... وهذا (المركب) في حدّ ذاته يجعل من قصة يوسف (معجزة) في المجال الأدبيّ ، والفنيّ ؛ الذي يجب أن يسترشد به الأدباء المسلمون .

لكن هذه السورة ـ إلى جانب الإعجاز التاريخي والقصصيّ ـ قد حفلت بالحديث عن آفاق اقتصادية ، واجتماعية ، ونفسية ، وطبية ، وتربوية ... إلى غير ذلك من العلوم ؛ التي ألمع إليها هذا البحث ...

وقد دخلت هذه الآفاق في النسيج الأدبي والبياني للقصة ، فكأنها ـ وهي علوم ومعارف ـ بعض إيقاعات ، أو ضرورات العمل الأدبي، وليست نشازاً فيه.

ومن (الإعجاز) أن يقدم القرآن شخصية يوسف (البطل) ـ عليه السلام ـ على هذا النحو؛ الذي يمثل القمة في الجمال البشري ، وفي العبقرية ؛ التي يمتلك صاحبها كثيراً من هذه العلوم ؛ التي امتلكها يوسف... وفي الكمال النفسي والخلقي والإيماني.

لقد قدمت سورة يوسف شخصية يوسف على أنه (معجزة) خلقها الله ؛ لتبقى نموذجاً في الجمع بين الجمال ، والعفة ، ومقاومة الإغراءات ، والعبقرية ، والرضا بالرخاء والشدة ... والصبر والتقوى :

{إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينْ} (٢) ...

ثالثاً : سورة يوسف والإعجاز التربوي :

من خلال قصة يوسف في القرآن الكريم تنساب عشرات القيم التربوية ؛ بحيث نجدها مبثوثة عبر كل المراحل في البداية ، وفي الوسط (العقدة) ، وفي النهاية... وإن أية محاولة لقراءة هذه

---

(١) سورة يوسف ، آية : ١١١.

(٢) سورة يوسف ، آية : ٩٠.

السورة؛ لاستخلاص القيم التربوية العملية المرتبطة بالروح وبالإيمان ، وبالأخلاق الزكية، تجعل هذا القارئ المتعمق يشعر فعلاً بما يسميه بعضهم (المدرسة اليوسفية)، أو(الجامعة اليوسفية)، فالسورة ـ بحق ـ من خلال (البطل) يوسف ، وأبيه يعقوب ، والشخصيات المتناثرة؛ التي تقدم الجناح الآخر للصراع بين الخير والشر، كلها تجعلك تشعر بأخلاق النبيين العظيمين (يوسف وأبيه يعقوب) ، وتشعر ـ أيضاً ـ بمدى الطبيعة الناشرة ؛ حين تتخلى عن قيادة الإيمان لها، كما حدث من إخوة يوسف ، وتشعر ـ ثالثاً ـ بمواقف الآخرين الوثنيين ، وخضوعهم لغرائز الدنيا مع وجود بعض أخلاق الفطرة عندهم ، واستعداد بعضهم للرجوع إلى الحق .

وابتداءً نقرر أن القرآن ـ وحده ـ من بين الكتب السماوية هو الذي ينفرد بوجود قصة حقيقية حول يوسف لها بداية، وعقدة ، ونهاية ، فحتى في التوراة ؛ التي ذكرنا سلفاً أنها أقرب الكتب السماوية إلى القرآن في هذا الموضوع بخاصة، لم تورد قصة يوسف على هذا النحو العضوي، أو الأدبي ذي الحبكة المتماسكة ، وإنما أوردتها من خلال (أربعة عشر إصحاحاً) من سفر التكوين (٣٧ ـ ٥٠) (١) ، وهي تسردها سرداً خالياً من أي ومضات روحية أو قيم تربوية ؛ بل لعل فيها من الوقائع ما يشوه بيت يعقوب على العكس من القصة القرآنية ومعطياتها.

والمعجز أنه خلال هذه القصة تنساب قيم تربوية واقعية، نراها حيَّة متحركة على مسرح الأحداث لا تنفصل عن الشخصية ، ومقوماتها ، وذلك على العكس من التوراة تماماً ..

ولـْنبق مع القرآن وعالم سورة يوسف ... في إعجازها القرآني التربوي ...

* يعطينا يعقوب ـ عليه السلام ـ قيمة الحذر ، وعدم التباهي بإعلان الشيء ، وإظهار الارتفاع عن الآخرين ، وذلك عندما يحذر ابنه يوسف من أن يقصّ الرؤيا على اخوته خوفاً من تحريك نفوسهم في اتجاه الشر ضدّه.

وهذا درس يغْفل كثير من الناس عن قيمته التربوية ، وقد شاع في مجتمعاتنا اليوم تفضيل الذكور على الإناث في بعض الأمور ؛ لاسيما المواريث ، وتفضيل بعض الأبناء على بعض في المعاملة، أو المال ، إمّا بسبب صغر بعضهم ، أو اختلاف الأمّ ... وكم كانت لهذه التفرقة من آثار سلبية تهدمت من خلالها معاني الأسرة ، وعاش الأبناء يصارع بعضهم بعضاً، وقد يحقد بعضهم على بعض ، وقد يقضون شطراً من أعمارهم أمام المحاكم ، وقد يرتكب بعضهم جرائم .. أما صلة الأرحام والترابط العائلي، والحبّ الأخوي ..فهي من أعظم ما يضيع من جراء هذه التفرقة الظالمة !!

* وحتى (الحُبّ) وهو أمر لا دخل للإنسان فيه، يجب أن يتحكم فيه الآباء والأمهات ؛ حتى يظهروا أمام أبنائهم بمظهر العدل ، ومع أن (الحُبّ) مطلوب ، وقد تكون المساواة فيه صعبة ، إلا أن المغالاة في التفرقة فيه ، وإظهاره بطريقة غير مبررة قد يؤدي إلى نفور بين الأبناء .

---

(١) التوراة السامرية ، ترجمة الكاهن السامري : أبو الحسن اسحق الصوري ، ص:٨٨ ـ ١١٢، الطبعة الأولى ـ مصر (١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م) ، دار الأنصار ـ القاهرة.

* وثمة قيمة ترتبط بصدر السورة ـ أيضاً ـ فقد حرص يعقوب على أن ينصح يوسف بالكتمان، وألا يقصّ الرؤيا على اخوته، مع أن الرؤية تشي بالنعمة ، ومع أنهم اخوته ؛ لكنه كان يحذر من حسد الإخوة لبعضهم ، وهذا يوحي باستعمال الكتمان ، وعدم التحدث بالنعمة ؛ إذا كان هذا الحديث يحرك الحسد في النفوس ، وقد يؤدي إلى شرور كما حدث بين يوسف واخوته ؛ الذين ألقوه في الجبّ ليموت ، أو ليباع بيع العبيد.

* وهناك قيمة نلمحها في صدر السورة ـ أيضاً ـ فمع أن يعقوب كان يشعر بمؤامرة أبنائه ، إلا أنه لم يشأ أن يدخل معهم في خصومة فيخسر كل شيء ، واكتفى بأن قال لهم : { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} (١) ، ولم يحاول بعد أن شعر ببراءة (الذئب المهذب جداً) أن يطلب الذهاب إلى الموقع ، أو استقصاء الأمور، فالدخول في مماراة ستبعث على تعميق الإحن ، وفساد الأمور، واكتفى بالقول :{ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} (٢) .

* وقيمة أخرى نلمحها في صدر السورة ـ أيضاً ـ وهي درسٌ تربوي عظيم ؛ يعلمنا أن الوسيلة الشريرة لا تصلح للغاية النبيلة ، فالأبناء الذين عابوا أباهم ، ورموه بالضلال المبين ـ وهذا سوء أدب نحذر الأبناء منه ـ يريدون أن يقتلوا يوسف ، أو يتخلصوا منه ؛ لكي يخلو لهم وجه أبيهم ، ويكونوا قوماً صالحين ، ولكنّ الأمرين لم يتحققا ، فقد عاش أبوهم في كدر سبعة عشر عاماً ، وعانوا هم من الشعور بالعقوق ، والخيانة ، فالشرّ لا يلد إلا شرّاً ، فلا يجوز لنا أن نخادع الله ، وأن نخدع أنفسنا ، وأن نجد لها المبِّرر ...

وبما أن الغاية لا تبرّر الوسيلة في الإسلام ... فإنهم قد ارتكبوا الخطأ ، وركبوا الوسيلة الباطلة ؛ لكنهم لم يصلوا إلى الهدف ، وهو الصلاح المزعوم ؛ لأن العمل الذي خبث لا يخرج إلا نكداً .

* وتعلمنا السورة ـ أيضاً ـ ونحن نستشرف صدرها ونهايتها معاً ؛ أن العاقبة للمتقين الصابرين، الصادقين مهما يطل الزمن، ومهما يكن حجم المعاناة ؛ بل بقدر ما تكون الآلام كبيرة تكون النتائج عظيمة ، ومن هنا فلا طريق إلا الصبر والتقوى ، كما قال يوسف نفسه في نهاية القصة ...

ـ وقد يقول بعضهم : إن بكاء أيوب يتنافى مع الصبر .. وهذا غير صحيح ، فالبكاء ـ في الحدود المقبولة اللائقة ـ مشروع ، وهو لا يدل على الجزع أو اليأس ... إلا إذا ارتبط بحركات أو أقوال تغضب الله ـ سبحانه ـ وتخالف الشريعة.

* ولا يجوز أن نعبر قيمة (الصبر) دون أن نقف عندها ؛ فالصبر من أعظم القيم التربية ؛ التي تعطيها لنا هذه السورة ... والصبر شقيق الأمل ، وهما معاً عدوّان للعجلة واليأس ، فلله في خلقه سُنن أجراها على الأنبياء ، وعلى سائر الناس ، رضوا أم كرهوا .

---

(١) سورة يوسف آية : ٨٣.

(٢) سورة يوسف آية : ١٨.

ـ وما دام الأمر قدريّاً لم تصنعه بيدك فيجب أن تثق في حسن العاقبة ، ويرى (راشد البراوي) أن سرّ صبر يعقوب ويوسف ؛ يعود إلى أنهما كانا يدركان أنهما لم يكن لهما دخل فيما أصابهما ، فيعقوب استأمن الإخوة على يوسف ، فلما خانوا العهد صبر ، وهو واثق أنه سيأتي اليوم الذي تزول فيه الغمة ، ويوسف زج به في السجن ، وهو بريء تماماً ، وجعله هذا الشعور ببراءته يؤمن بأنه سوف يسترد حريته ، كما أنَّ يعقوب وابنه كانا يؤمنان بأن الله لابدّ أن يحق الحق ويجزي المحسنين [١] .

لكنني مع تقديري لهذا (الميزان) القائم على (العدل) ؛ الذي أشار إليه الباحث الكريم إلا أنني أرى أن الثقة في الله ، وفي رحمته وعدله ، والإيمان الكامل ؛ هي الوقود الأعظم للصبر ، والأمل، حتى لو لم يأخذ المظلوم حقه في هذه الدنيا ، وكم من ظالمين ذهبوا دون أن يُقْتصّ منهم؛ مع أنهم لم يظلموا أفراداً ، وإنما ظلموا شعوباً بأكملها ، وفرضوا عليها الاستبداد ، والطغيان ، كما سرقوا أقواتها، وعملوا لخدمة أعدائها ....

وعندما يموتون ـ لأن الدنيا قصيرة ، والأعمار محدودة ـ فإن الأجيال تلعنهم ، وتجعلهم مثلاً سيئاً ، إلا أنَّ جزاءهم الحقيقي هناك في الآخرة ، ولا يمكن أن يكون عقابهم في الدنيا كافياً في مقابل ظلمهم للملايين ، وسرقتهم للمليارات ... فأيّ دنيا تكفي للاقتصاص من هؤلاء ؟!!

ـ ولذلك حسم يوسف الأمر في نهاية الرحلة عندما أرجع إلى التقوى والصبر كل شيء جميل أعطاه الله له ولأهله.

لقد كان صبر يوسف عميقاً في سعته ، ومجالاته المتعددة ، فقد صبر على إيذاء اخوته له ؛ إيذاءً وصل إلى مرحلة الشروع في القتل ، وصبر على بيعه عبداً بثمن بخس ، وصبر على نعم الله بالشكر والطاعة ، والعفة ، والأمانة على العرض والمال لمن ائتمنه ، وصبر على الغريزة الجنسية؛ التي هُيئت له تهيئة حافلة بصور الإغراء ؛ التي لا يقاومها إلا الأبطال المؤمنون ... وصبر على السجن ، وتحول فيه إلى داعية رشيد ، والتزم الأخلاق الزكية ؛ التي جعلته ملجأ المسجونين ومعلمهم ... وصبر على العمل المضني ؛ الذي وكل إليه لإنقاذ شعب من الموت ... وصبر وغفر لإخوته عندما جاءوه سائلين، يعانون العوز وعذاب السفر ، وكان بإمكانه الانتقام منهم ... وصبر ـ مع التخطيط ـ في استدعاء أخيه بنيامين ووالده يعقوب ، فترك الثمار حتى تنضج ... ثم كشف للجميع عن شخصيته !!

ـ فأي صبر (يوسفيّ) هذا ؟!!

ـ ويا لها من قيمة أخلاقية يعلمنا إياها يوسف ؛ عندما يحافظ على مشاعر اخوته ، ويأبى تذكيرهم بما ارتكبوه في حقه ، إنه لم يقل وهو يتحدث بنعمة الله عليه (أخرجني من الجب) ؛ بل قال: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ} متحاشياً ذكر الجب مراعاة لمشاعر اخوته ؛ الذين ألقوه في الجب ، وَعَرّضوه للموت ... وهذا درس لنا، حتى لا نذكِّر الذين أساءوا إلينا بإساءاتهم فنخدش حياءهم، وكرامتهم !!

---

[١] القصص القرآني ـ تفسير اجتماعي ، ص: ١٠٢.

* ويا لها من قيمة أخرى جميلة برزت متألقة في سلوك يوسف في بيت العزيز ... إنها قيمة لا نجد لها اسماً واحداً ، فهي مركبة من (العفة ، والوفاء ، والإيمان) ... ففي مواجهة طغيان زوجة العزيز الجميلة ؛ التي زعمت التوراة أن زوجها كان خصيّاً ، مع جرأتها في السرّ وفي العلن على طلب الفاحشة ، مع التهديد بالسجن ، والتصغير ، والاحتقار، يقف يوسف بطلاً يعلم الناس وجوب الاعتصام بالله ، ووجوب الوفاء ، لاسيما في هذه الامتحانات الصعبة ؛ التي يظهر فيها المعدن النفيس من المعدن المزيف ... إنه بدلاً من الخضوع، أو محاولة الخروج من الموقف بشيء من اللطف يقف ـ بقوة وحزم ـ أمام هذه الزوجة الخائنة ليذكرها بفضل زوجها عليه هو ، فكيف بفضل زوجها عليها ، وهو الذي جعلها زوجة وزير ، ومكنها في الأرض ، وهاهي تكافؤه بالخيانة الوقحة ... أما يوسف وهو الخادم؛ الذي أحبه زوجها، وجعله رئيس الخدم فهو أوْفى منها؛ ولهذا يرفض خيانة زوجها ، ولكنّ هذا الوفاء مربوط بالخوف من الله ، فإذا كان زوجها أحسن مثواه ، فإن الله لا يفلح الظالمين ، وهو يخشى أن يكون (ظالماً) أمام الله ، كما أنه عفيف ، ورث العفّة عن آبائه وأجداده ، وآتاه الله حكماً وعلماً ... وهكذا بهذه القيم المتداخلة نجح يوسف في هذا الامتحان الصعب ، وقبل السجن بديلاً عن حياة تعجّ بالفساد، والتحلل، والخيانة.

* وتعلمنا سورة يوسف ، وزوجة العزيز ؛ خطورة الخلوة بالمرأة الأجنبية في البيت أو غيره، تحت أي شعار أو مسمى ، فعلى الرغم من فارق السن والمكانة بين يوسف وامرأة العزيز إلا أنها ـ مع تكرار الخلوة وظهور مخايل الشباب على يوسف ـ شغفت به ، وسعت لإرغامه على الفحشاء ، لولا أنه كان من عباد الله المخلصين ... وللأسف فقد كثر وجود الخدم والخادمات في بيوت بعض العرب والمسلمين .

ـ ويعطينا هذا الدرس قيمة أخرى ... فهذا الامتحان ؛ الذي قبل يوسف أن يدفع ـ من أجل النجاح فيه ـ ثمناً غالياً ، وأن يخرج من القصور إلى السجن ؛ الذي يشبه القبور ... هذا الامتحان كان طريقه ـ لو أبصرنا خطوات المستقبل القادمة ـ إلى المجد، وحكم مصر ... فامتحان واحد يُؤثر فيه الإنسان ما عند الله ، وينتصر فيه على الشهوات والمغريات، قد يقوده إلى أعظم نجاح قد لا يتخيله الإنسان في حياته.

* ومن القيم التربوية المستوحاة ما يدلنا عليه موقف التفاف المسجونين حول يوسف ، وقدرته على الدعوة إلى التوحيد بينهم ... لقد كان وراء ذلك خلقه الرفيع ، وسمته الكريم ، وصلاحه ، وتقواه ... فكان الملجأ للمستفتين ، وكان الأمين؛ الذي وثق به رئيس السجن ، فجعله رئيس المسجونين ، وهذا يعلمنا أن خير دعوة للقيم ، وأفضل وسيلة لنشر التربية الفاضلة هو (السلوك).. سلوك المعلمين، والآباء، والمسئولين .

* وكان يوسف ينتهز كل فرص التقارب معهم؛ ليدعوهم إلى التوحيد قائلاً : {أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ} (١) ، وهذا من فقه الأوليات ، وفقه الدعوة بالحكمة .

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٣٩.

* وفي هذا الرصد للقيم التربوية الصانعة للرقي الإنساني ، هل نستطيع إغفال قيمة الأسرة، والتنشئة العائلية الأولى ، والبيئة الصالحة؟ لقد كانت فراسة يعقوب في مكانها عندما تنبأ ليوسف بأن الله سيجتبيه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتمّ نعمته عليه ... ولعله أولاه عناية تربوية خاصة ـ مع الحبّ ـ بعد أن رأى جموح اخوته ، وميلهم إلى الغيرة المؤدية إلى المكر ... ومن هنا كان يمنع يوسف من أن يقصّ رؤيته على اخوته فيكيدوا له ... وهذا ـ أيضاً ـ من فراسته التربوية؛ التي يجب أن يتزود بها المربون والآباء ... بحيث يعملون على كبح جماح المفاسد عند ذوي النفوس الجامحة ... ويعملون ـ في الوقت نفسه ـ على رعاية النابغين الواعدين ؛ حتى لا يضيعوا في زحمة الغثاء الغالب في المجتمعات ... بل إنني أعتقد أن يوسف كان يخضع لتوجيهات قيمية تربوية مكثفة تلقاها من أبيه ، وقد حفرت لنفسها أعماقاً راسخة في وجدانه ، وتفكيره ... وقاوم بها هذه التحديات الصعبة التي واجهها ... مع حداثة سنه تارة ، وفي ظل شبابه الغض المتدفق حيوية وجمالاً تارة أخرى .

ولعل يوسف لم ينس في كل تقلبات حياته قولة أبيه له ، مذكراً إياه بعظمة أسرته، التي يجب أن يكون امتداداً صالحاً لها :{ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (١) .

ـ وإطلاق لفظ الأبوة على أجداده يشي بأهمية الرباط الوثيق بين الأصول والفروع .

ـ ولعلَّ يوسف قد شعر ـ من هذا الإطلاق ـ بأنه يحمل على كاهله مسئولية تاريخية ، وأخلاقية عظيمة .

* ومثل يوسف يجب أن تظل صفحته بيضاء لا تشوبها شائبة ، ولهذا لم يقبل الخروج من السجن إلا بعد التحقيق مع النسوة اللائي أعجبن به ، واعتراف زوجة العزيز أمامهن بأنها التي راودته عن نفسه ، وندمها ـ وندمهنّ ـ على ما كان منهن ، واعترافهن المدوي بأنهنَّ ما علمن عليه من سوء !!

وهكذا يجب أن نحرص على قيمة الكرامة الشخصية ، والسمعة الطيبة ، والبعد عن مواطن الريبة ... لا سيما إذا كنا نعد أنفسنا ، أو مجتمعاتنا للبناء والتعمير ، والطهر والشرف .

* وكذلك نتعلم حرص يعقوب على أبنائه ـ مع ما في نفسه تجاههم ـ ونصحه لهم بأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ؛ حتى لا يتعرضوا للحسد ، أو الظنون ، أو الإيذاء ... فالوالدان أكبر من أن يحقدا على أولادهما ، أو أن يتمنّيا لهم الشر مهما تكن أخطاؤهم (!!) فهل يدرك الأبناء قيمة الوالدين؟ !!

* ومن القيم الجديرة بالتنويه والتأسيّ ـ لاسيما في عصرنا الذي يتطاول فيه الإنسان ، وتتطاول الحضارات المادية على الله القوي القادر ـ أن يوسف (عليه السلام) ... ذلك العظيم في جماله الخلقي والنفسي ، العبقري في مداركه العلمية ، وفنون القيادة ، لم ينس ـ أبداً ـ اللجوء إلى

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٦.

الله ، والشعور بالحاجة ، والعجز ، والضعف أمام قدرة الله ... إنه مع قوته النفسية والإيمانية ، والجسدية التي تجعله يؤثر السجن ... ومع زعامته الكبيرة عندما مكنه الله في الأرض ... مع كل ذلك ـ دائماً ـ يستعين بالله ، وتتألق العبودية الخالصة لله في كل أموره ... في السراء والضراء ... لم تجعله المحن ييأس من الوقوف أمام باب الله راجياً ... ولم تجعله المنح يبطر ويشعر بأنه فوق الحاجة إلى الله، والوقوف ببابه ... بل إنه المقرّ بفضل الله في كل الحالات ... فوقْفَتـُهُ الشجاعة أمام النساء المعْجبات يعزو الفضل فيها إلى الله : { وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ}(١) ... وفي ساعة تفسيره لرؤيا السجينين لم يتظاهر متطاولاً بالعلم ... بل اعترف بفضل الله قائلاً : {ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي} (٢) ، وقائلاً أيضاً : ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} (٣) .

* وهنا تظهر قيمة أخرى عند يوسف ، لابدّ من الإلماع إليها ، وهي قيمة (الشكر) القائمة على الاعتراف (بفضل الله)، وبعونه في كل الأحوال ... بل إن يوسف ليبلغ به الشعور بأيادي الله عليه، ونعمه الغامرة عبر رحلته المليئة بالمحن والامتحانات ... مبلغاً يفسر من خلاله كل ما فيها بأنه كان تخطيطاً لكرم إلهي أسداه الله إليه ... إنه يقول لأبيه يعقوب في لقائهما العجيب الفياض بالعبرات والعبر ... {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ البَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ...}(٤) .

ولنلاحظ هنا (اللطف لما يشاء سبحانه)، وليس (بما أو بمن يشاء) ... إنه التخطيط الإلهي؛ الذي يحقق الله به إرادته ، والذي لا يبصره إلا أصحاب البصائر النقية ، والقلوب التقية، وقد أبصره يوسف ، ويعقوب ـ عليهما السلام ـ .

* ومع ذلك كله هناك (قيمة العفو المصحوبة بالكرم) ... فمع أن إخوة يوسف قد اعتذروا إليه اعتذاراً هزيلاً ؛ عندما قالوا : {تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ} (٥) ، فحتى في اعتذارهم يبدو نوع من الحسد في كلماتهم ... بل إنهم ـ قبل ذلك ـ عمدوا إلى إيذاء يوسف واتهامه بالباطل؛ الذي يعرفون أنه باطل، وأنه لم يكن إلا دعابة عائلية بين عمة يوسف وأخيها يعقوب ، وذلك عندما قالوا في بنيامين : {إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ} (٦)، يقصدون يوسف ... كاشفين أن كمية الحقد لديهم عليه لم تنته بعد ...

---

(١) سورة يوسف، آية : ٣٣.

(٢) سورة يوسف، آية : ٣٧.

(٣) سورة يوسف، آية : ٣٨.

(٤) سورة يوسف، آية : ١٠٠.

(٥) سورة يوسف، آية : ٩١.

(٦) سورة يوسف، آية : ٧٧.

ومع ذلك كله سرعان ما يتجاهل يوسف كل هذا ويقول لهم : {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (١) ... وبينما يقولون هم ليوسف : { لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ علينا} .. فإن يوسف يقول لهم : {لاَ تَثْرِيبَ} ـ أي لا لوم ولا تأنيب ـ حتى مجرد التأنيب مع كل ما ارتكبوه ... بل ويدعو الله أن يغفر لهم ..

بل ويبلغ الأمر به ـ لشدة دماثة خلقه ، وسعة صدره ، ونقاء قلبه ـ أن يسمي ما فعلوه به ، وما دفع ثمنه غالياً ـ مجرد مكيدة شيطانية بينه وبين اخوته ؛ بل ويبدأ بنفسه قائلاً : { مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} (٢) ... وكأنه ينسب الجريمة إلى الشيطان لا إلى إخوته ... أدباً ولطفاً!!

* * *

لقد قدمت لنا سورة يوسف ـ من خلال الدرس التاريخي والأدبي والحضاري ـ (منظومة قيمية تربوية معجزة) ، تستحق أن تأخذ مكانها في المناهج التربوية والتعليمية ... في المستويات المختلفة من الأعمار العقلية والزمانية .. فهي خطاب لكل هؤلاء ... بأسلوبها القادر على الدخول إلى أعماق الوجدان ... وأعماق العقل ... على كل المستويات.

لقد تحقق للسورة كل أنواع الإعجاز في القرآن، ففيها إعجاز النظم ، والإيجاز ، وفصاحة الألفاظ ، ومعانيها الجامعة ، والأسلوب البديع ، والبيان البديع ، وبلاغة المعنى ، ووضوحه ، بالإضافة إلى ما فيها من العلوم والمعارف والغيبيات ...

وقد أضافت ـ إلى ذلك ـ إعجازها التاريخي، والأدبي، والتربوي .

وأخيراً ...

ففي ختام هذه المنظومة التربوية المعجزة لم تنس سورة يوسف أن تعطينا درساً يصل بنا إلى تقدير العظمة اليوسفية على حقيقتها ... ففي هذا الوقت الذي يُفترض أن يزهو فيه يوسف بالنصر، هاهو يذكّرنا في هذه اللحظة بالموت... وبالآخرة...

لقد ملك الدنيا ... فلم يبق إلا أن يفوز بالجنة في الآخرة ...

وهذا هدف يجب أن يكون نصب عيوننا ... إذا كنا نقَّدر قيمة وجودنا واستخلافنا في الأرض.

ـ ولذلك فمع اعتراف يوسف بأيادي الله عليه يطلب من الله ـ في الوقت نفسه ـ أن يموت مسلماً، وأن يلحقه في الآخرة بقافلة الصالحين : { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ

---

(١) سورة يوسف، آية : ٩٢.

(٢) سورة يوسف، آية : ١٠٠.

الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَقَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}(١) .

ـ إنها الومضة الأخيرة في القصة ... وهي تعطينا الفيصل بين المنهاج التربوي الدنيوي ، والمنهاج الأخروي ...

ـ إن الطريق موصول بين الدنيا والآخرة.. وإن الوقوف عند نهاية الطريق الدنيوي احتقار للإنسان والرسالة؛ بل هو بَخْسٌ له ولرحلة كفاحه ضد الشرّ والطغيان على هذه الأرض ...

إن الجزاء الحقيقي للمتقين الصابرين ... لا تستطيع الدنيا أن تمنحه مهما تكن مساحتها الزمانية، والمكانية... بل إن هذا العبد التقي الصابر لا يليق به إلا الجنة الخالدة ... وهذا أيضاً هو المنسجم مع كرم العناية الإلهية ورحمتها ...

وهكذا تقول لنا سورة يوسف في نهاية الرحلة : { وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}(٢) .

أجل ـ أيها الباحثون عن إنسانية الإنسان ، وعن السعادة الخالدة : **أفلا تَعْقِلُونَ !!**

---

(١) سورة يوسف، آية : ١٠١.

(٢) سورة يوسف، آية : ٩٩.